المشهد الأول

بروكسل

obeikandl.com

أبطال المشهد:

- **حكيم:** شقيق عمر الأكبر
- **رشدي:** شقيق عمر الصغير
- **إدوار:** مربي عمر في بلجيكا عن طريق التبني
- **عادل:** شقيق عمر الأصغر
- **نبيل:** شقيق عمر الصغير؛ مقيم في بروكسل مع أم عمر وحكيم
- **أمين:** صديق حكيم؛ ضيف كثير التردد على بيت عمر في بروكسل
- **ياسين:** صديق حكيم؛ أيضاً ضيف كثير التردد على بيت عمر
- **طارق:** صديق حكيم، ياسين، وأمين؛ رئيس تحرير الأنصار
- **كمال:** مترجم الأنصار عند طارق
- **لوران:** تاجر الأسلحة الذي يتعامل معه عمر
- **جيل:** ضابط إدارة جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الي جي اس إي DGSE)؛ زبون عمر
- **جمال:** مرافق عمر إلى إسبانيا
- **تيري:** زبون جيل في الجهاز السري البلجيكي

obeikandl.com

تسلسل زمني

1979/12/24: يقوم الاتحاد السوفيتي بنشر قواته في أفغانستان، بادئاً الحرب السوفيتية ـ الأفغانية.

1989/2/15: يعلن الاتحاد السوفيتي انسحاب قواته من أفغانستان.

1992/12/...: تندلع حرب أهلية في الجزائر بعد قيام الحكومة بإلغاء انتخابات ديمقراطية.

ربيع 1992: تبدأ الحرب في البوسنة والهرسك (ثمة جدل حول التاريخ الدقيق).

1994/12/11: القوات الروسية تتوغل في بلاد الشيشان للحيلولة دون انفصالها عن الاتحاد الروسي.

1994/12/24: اختطاف طائرة الرحلة الجوية رقم 8969 للخطوط الجوية الفرنسية في مطار الجزائر العاصمة.

1994/12/26: عملية الاختطاف تنتهي باقتحام وحدة فدائيي نخبة الدرك الفرنسي المتخصصة بمكافحة الإرهاب للطائرة على مدرج مطار مارسيليا.

1995/1/30: سيارة مفخخة تنفجر خارج مخفر للبوليس بمدينة الجزائر، وتقتل 42 شخصاً كما تجرح 286 شخصاً.

1995/3/2: تنفذ الشرطة البلجيكية سلسلة من عمليات المداهمة في أرجاء البلاد بهدف تفكيك إحدى شبكات الجماعة الإسلامية المسلحة في أوروبا.

obeikandl.com

0 250 500 750 1000 km
0 250 500 mi
FINLAND
ESTONIA
RUSSIAN FEDERATION
LATVIA
LITHUANIA
BELARUS
KAZAKHSTAN
UKRAINE
REP. OF MOLDOVA
ROMANIA
Crimea
Black Sea
GEORGIA
AZERBAIJAN
ARMENIA
BULGARIA
Istanbul
TURKEY
GREECE
IRAN
SYRIA
IRAQ
LEBANON
JORDAN
SAUDI ARABIA
EGYPT

ICELAND
NORWAY
Faroe Is.
Shetland Is.
SWEDEN
IRELAND
UNITED KINGDOM
DENMARK
Stansted
London
NETHERLANDS
Berlin
Eisenhüttenstadt
POLAND
Brussels
GERMANY
Cologne
Oberhausen
Frankfurt
ATLANTIC OCEAN
BELGIUM
LUX.
Paris
CZECH REP.
FRANCE
LIECHTENSTEIN
SWITZERLAND
AUSTRIA
HUNGARY
SLOVENIA
CROATIA
SAN MARINO
BOSNIA AND HERZEGOVINA
Marseille
PORTUGAL
SPAIN
Madrid
ITALY
Corsica
Balearic Is.
Sardinia
ALBANIA
Algeciras
Tangiers
Strait of Gibraltar
Ceuta
Mediterranean
Algiers
Sicily
Casablanca
MALTA
MOROCCO
ALGERIA
TUNISIA
LIBYA

obeikandl.com

عمر

اسمي: عمر الناصري. أنا مغربي. وُلدت في 1967. أنا مسلم.

آسف أنا جداً. جُل هذا الكلام غير صحيح.

اسمي ليس عمر الناصري، أو، أقله، ليس هو الاسم الذي أعطاني إياه أبواي. إنه الاسم الذي أستخدمه لتأليف هذا الكتاب، إلا أنه ليس إلا واحداً من قائمة طويلة من الأسماء التي استخدمتها خلال مسيرتي الحياتية. أو ربما يتعين علي أن أقول مسيراتي الحياتية أو حيواتي - ابناً، أخاً، طالباً، تاجر سلاح، مجاهداً، عميلاً سرياً، مدنياً، زوجاً، ومؤلفاً آخر المطاف.

لم أولد في 1967. لابد لي من حماية هويتي لأن أفراداً من عائلتي مازالوا يعيشون في المغرب، ومن شأن حيواتهم أن تتعرض للخطر إذا ما عُرف اسمي. إلا أن ما أقوله يبقى على درجةٍ كافية من القرب من الواقع على أي حال. فقد وُلدتُ في ستينيات القرن العشرين.

أنا مغربي، غير أن الأمر معقد أيضاً. أبواي مغربيان، بالطبع، وقد أمضيت عدداً غير قليل من سني حياتي هناك. أنا مغرم بالمناظر والناس وابتسامات الأطفال البيضاء العريضة، وروائح الأطعمة. أنا أعشق النساء في أثوابهن الحريرية الزاهية من اللونين الوردي والأخضر. المغرب في قلبي. مع أنني سافرت إلى جميع أصقاع الدنيا، فإن المغرب يبقى البلد الأجمل في العالم بالنسبة إلي. أموت شوقاً إليه، غير أنني أعلم أنني لن أستطيع العودة أبداً.

إذا كان قلبي في المغرب فإن عقلي في أوروبا، حيث تعلمت، حيث نشأت وترعرعت، حيث قضيت الجزء الأكبر من حياتي. أنا أقرأ اللوموند، الكتب المستوردة من أمريكا وإنجلترا. الغرب هو الذي شكّل عقلي، بأنماط تفكيره، بنزعته الفردية المتوثبة، المتغطرسة، المثيرة للدهشة.

ولأنني عربي من ناحية وأوروبي من ناحيةٍ أخرى في الوقت نفسه، فأنا بلا وطن. حين عدت مراهقاً إلى المغرب، كانت لغتي العربية ضعيفة وسخر الصبية الآخرون مني بوصفي أوروبياً أو أجنبياً. وحين زرت المغرب، قبل ما يزيد على عقد من السنين، تصرفت كما لو كنت غربياً، زائراً جاء من الخارج. تناولت شراب الوسكي على ظهر العبارة ودخنت السيجار وعاكست البنات. غير أنني لست 'صاحب بيت' في أوربا هي الأخرى. لقد عشت في ألمانيا لمدة ست سنوات مع زوجي، وشغلت عدداً كبيراً من الوظائف، غير أنني لست مواطناً. أنا مصنف بوصفي لاجئاً ويتم التعامل معي مثل أي 'عامل ضيف' عربي آخر.

ثمة، إذن، شيء واحد فقط صحيح مئة بالمئة: أنا مسلم.

داني التيس

انتهت حياتي حين بلغت الثامنة من العمر. كنت في غرفة النوم، جالساً إلى الطاولة مشغولاً ببناء أنموذج طائرة. أكبر إخوتي، حكيم، كان يتصارع فوق فراش السرير مع رشدي، أحد أشقائي الأصغر. تضايقت لأنني لم أكن أستطيع التركيز، أخذت فترة استراحة وذهبت إلى الحمام طلباً لنكاشة أذن. حين عدت إلى الغرفة كانا لا يزالان يتصارعان، وأنا جلست على الأرض ورحت أنظف أذني. بعد ثوانٍ قليلة تدحرج أخواي عن السرير وسقطا فوقي.

شعرت بالنكاشة المخترقة لطبلة أذني، وألم بالغ الحدة عمّ جَسَدي. كدت أغيب عن الوعي، غير أنني كنت لا أزال قادراً على سماع زعيقي ونواحي. حين انسحب أخواي من فوقي، وجدتني غارقاً في بحر من الدم. كان الدم يحيط بي من كل الجهات.

كان من شأن تلك أن تبقى مجرد حادثة صغيرة ناجمة عن لعب الصبية الخشن. غير أنها كانت أكبر من ذلك بكثير. إنها غَيَّرَتْ حياتي إلى الأبد،

وحرمتني من الشيء الوحيد الذي كنت أعده مهماً. لم أتعاف تماماً على الإطلاق.

ولكن، اسمحوا لي أن أبدأ من البداية الأولى. وُلدت في عائلة كبيرة - ستة بنين وثلاث بنات. وأنا الثاني بين الأبناء من حيث العمر.

كنت مفعماً حيويةً وأنا طفل، ربما حيوياً أكثر مما ينبغي أحياناً. كنت أرد على أبوي، ومثل جميع الصبية كنت أتشاجر مع إخوتي. ولاسيما مع حكيم الذي كان أكبر سناً وأضخم جسداً. كان هو يحاول أن يلزمني حدودي، أما أنا فكنت أتصدى وأقاوم على الدوام.

كنت مؤذياً وأدس أنفي في كل شيء. كنت مولعاً بسرقة الزبدة من البراد - كنت مغرماً بمذاق الزبدة - ثم أتسلق شجرة وآكلها. ذات يوم أكثرت من تناول الزبدة إلى درجة أوصلتني إلى المستشفى، وأجبرتني أمي على أن أقطع وعداً بعدم تكرار ذلك مرة أخرى. غير أنني لم أتوقف بالطبع، وحين اكتشفَتْ أمي ذلك كانت شديدة الغضب حتى أنها عاقبتني بكَيّ يدي بملعقة محمّاة. حتى ذلك لم يوقفْني طويلاً.

كنت في الثالثة حين انتقل أبي إلى بلجيكا. وجد عملاً في بروكسل فتركنا جميعاً في المغرب مع أمي. بعد عامين لحقنا به. بعيد وصولنا أخذتنا أمي جميعاً إلى الطبيب للمعاينة. الرعاية الطبية في المغرب باهظة جداً. لذا فإننا لم نكن نزور الطبيب إلا في الحالات الطارئة. أما في بلجيكا فإن الرعاية الطبية مجانية مما دفعنا إلى مراجعة الطبيب فوراً. وإذ ذاك علمت أنني مصاب بداء السل.

وبسبب السل مُنعت من العيش في المدينة مع عائلتي. بدلاً من ذلك، تم إرسالي إلى مصح في الريف، على مسافة نحو سبعين كيلومتراً خارج بروكسل. بين عشية وضحاها وجدتني، أنا ابن أفريقيا الشمالية المشبع بالتراث القرآني،

في مدرسة كاثوليكية عائدة للراهبات اللواتي كن، جميعاً من الأوروبيين البيض. وكنت أنا العربي الوحيد.

كان واضحاً لي ولجميع الآخرين أنني كنت مختلفاً. لم يكن أحد فظاً معي على أي حال؛ الأطفال الآخرون كانوا يلعبون معي وأنا ألعب معهم. كانوا يستفزُّونني قليلاً أحياناً، كما يفعل الأطفال عادةً، غير أنني كنت أرد لهم الصّاعَ اثنين. لم أكن استثنائياً متميزاً.

غير أن الأمر كان مختلفاً أيام الأحد. كنا جميعاً نذهب إلى الكنيسة سوية، وكانت القداديس تبدو لي استثنائية الغرابة. الصلوات، المناولة، البخّور؛ كان الوضع مختلفاً عن أوضاع الجوامع التي كنت أتردد عليها في الصيف أو لدى ذهابي إلى البيت أيام العطل. ثمة كانت موسيقا، ثمة رجل كان يعزف على الغيتار. في الإسلام ليس هناك أي موسيقا في بيت الرب؛ كنت قد نشأت وأنا أعد ذلك إثماً عظيماً. إجمالاً بدا لي الأمر مضحكاً، وأحياناً كنت أضحك علناً. أعتقد أن هذا كان يؤدي إلى إغاظة الأطفال الآخرين وإثارة أعصابهم.

لم أكن أرى أهلي كثيراً خلال هذه الأعوام. في أشهر الصيف كنا جميعاً نذهب إلى المغرب، وبين الحين والآخر كنت أعود إلى بروكسل لأراهم في أحد أيام العطل الأسبوعية أو الأعياد. وأحياناً - ربما نادراً، مرتين أو ثلاث مرات في السنة - كان أبواي يزورانني ويبقيان معي ساعة أو اثنتين. إلا أن حياتي الحقيقية كانت في المصح.

تلك هي الفترة التي عشقت فيها الطائرات. كان لأبي صديق يعمل في قطاع صناعة الطائرات، وكان أحياناً يحدثني عن الطائرات ويطلب مني بناء نماذج طائرات. لدى قيامي بزيارة أهلي في بروكسل كنت أُكْثِر من زيارة المتحف الحربي في حديقة سانكانتينير. ثمة كانت صالة كبيرة ملأى بالطائرات الموروثة عن الحرب العالمية الثانية، وكنت أمضي ساعات طويلة وأنا أستوعب كل تفاصيلها.

كنت استثنائي الفضول؛ لدى طيراننا في الرحلات بين المغرب وبلجيكا كنت دائماً أهرب إلى قمرة القيادة وأطلب من الطيارين إطلاعي على المعدات والأجهزة.

إجمالاً، اطلعت على معظم الأشياء المتعلقة بالطائرات من داني التيس الذي كان بطل أحد المسلسلات الكوميدية البلجيكية، وقد قرأت جميع كتب مسلسل داني التيس من الغلاف إلى الغلاف. فالتيس العملاق، الرياضي، الوسيم والأشقر كان طياراً شجاعاً قاتل دفاعاً عن أمريكا ونفَّذ جميع أنواع الطلعات الخطرة مع صديقيه جري البرميل وتاكسون الصغير. كانت القصص الهزلية شديدة الواقعية؛ تعلمت أسماء جميع الطائرات والكثير من المعلومات عن كيفية التحليق بها. قرأت جميع الكتب وأعدت قراءتها، وكنت في الليل أحلم بأن أغدو طياراً مقاتلاً مثل داني التيس. كنت راغباً في ذلك أكثر من أي شيء آخر.

في تلك الفترة تعرضَتْ طبلةُ أذني للثقب. حاول الأطباء في بلجيكا إصلاحها وترميمها. أُجريت لي سلسلة عمليات جراحية. ولكنهم بقوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً. مازالت أذني اليسرى صماء مئة بالمئة تقريباً. أدركت استحالة التحاقي بالجيش، استحالة قيادتي لأي طائرة. لم يبق شيء أعيش من أجله. كنت قد فقدت كل شيء ينطوي على أهمية.

ما من صبي إلا ولديه حلم. أن يصبح إطفائياً، رائد فضاء، رئيساً للجمهورية، أو شيئاً غريباً غير مألوف. من الطبيعي أن معظم الأطفال لا يحققون أحلام الطفولة، غير أن ذلك ليس هو المهم. فمع نمو الصبي وتحوله إلى رجل يتحرر من الحلم على الرغم من أن الأخير يبقى بوصفه حنيناً ماضوياً. أما إذا تعرض حلمه للتدمير في سن مبكرة جداً، فإن الصبي إما أن يتدمر كلياً مع حلمه، أو أن يصبح قوياً. لعله يصبح قوياً لأنه لا يعود متوفراً على أي شيء يمكن أن يخسره. لعله يُقْلع عن المراهنة على المستقبل.

أيُّ طفلٍ بلا حُلُم يكون خطراً.

إدوار

'مرحباً، اسمي تاكسون الصغير. أنا صديق داني التيس.'

كان ذلك أواخر فصل الربيع، وكنت أنتقل من مهجعي في المصح. كنت في العاشرة من العمر، وقد آن لي أن أذهب إلى مدرسة جديدة. كنت سأبقى في البلدة نفسها، ولكن مع أبوين بالتبني.

كنت أعرف هذا، غير أن شيئاً لم يكن بعد قد هيأني للقاء إدوار. كنت واقفاً أمام المهجع حين جاء مستقلاً سيارته الفولفو الصفراء. قفز من السيارة وتوجه نحوي. كان رجلاً ضخماً، طويل القامة رياضياً. كان له أنف حاد، أنف فرنسي مئة بالمئة، وشعر أسود بدأ يشيب. التقط حقيبتي ووضعها في مؤخرة السيارة، وقدم لي نفسه على أنه تاكسون الصغير. لن أنسى تلك اللحظة أبداً. بالطبع أُدرك الآن أنه كان قد اطلع على ملفاتي وعرف أنني كنت مُغْرَماً بداني التيس والطائرات. أما في ذلك الوقت فقد بدا الأمر كما لو كان سحراً: ثمة كهل ناضج كان جزءاً من عالمي. كنت مسحوراً.

عشت مع إدوار مدة خمس سنوات في إحدى القلاع الكائنة في الريف. كان في الأربعين من العمر تقريباً ويعيش في مزرعة قديمة فضفاضة مع أبوين وأخ. كانوا سويسريين. علمت فيما بعد أن إدوار كان موظفاً مدنياً لسنوات عديدة إلا أنه كان قد ترك العمل وصار يأخذ أموالاً من الدولة ثمناً لتربية أولاد يتبناهم ويساعدهم في المدرسة. كان ثمة نحو خمسة وعشرين منا دفعة واحدة في أي وقت في ذلك البيت الريفي.

كان إدوار بالغ الدقة، شاعراً بالأشياء بعمقٍ استثنائي. كان شديد الحرص على تمكيننا جميعاً من النجاح، ولدى إخفاقنا كان يتألم أكثر منا. كان على الدوام صادقاً جداً، وقد علّمنا كيف نتحلى، نحن أيضاً، بالصدق والأمانة.

مع تقدمي في السن، صرت أُمضي وقتاً أطول فأطول وحدي. لدى انتقالي إلى بيت إدوار لم أكن أكثر من اللعب مع الأطفال الآخرين. كنت أحب أن أقوم بالأشياء وحدي. تعلمت العزف على البيانو، وأمضيت كثيراً من الوقت وأنا أسبح في البركة الكائنة خلف القلعة. كنت مغرماً بالسباحة ـ كنت أشعر بالحرية في الماء. كان جسمي خفيفاً وبدوت قادراً على أن أفعل به أي شيء. كنت أستطيع التقلب والغوص والتحرك في جميع الاتجاهات. لم يكن ثمة ما يمكن أن يوقفني.

كذلك أمضيت كثيراً من الوقت وأنا أتابع البرامج التلفزيونية. كان ثمة جهاز تلفزيون في الصالون، وبعد الدروس كنت أجلس أمام جهاز التلفزيون وحدي ساعات طويلة. شاهدت عدداً كبيراً جداً، جداً من الأفلام. مئات الأفلام عن الحرب العالمية الثانية: تورا! تورا! تورا!، معركة منتصف الطريق، ثلاثون ثانية فوق طوكيو. كانت هذه الأفلام تجمِّدني في مكاني. وعلى الرغم من يقيني باستحالة صيرورتي طياراً ـ أو ربما لمعرفتي بالحقيقة ـ فإن هذه الأفلام كانت استثنائية الجاذبية بالنسبة إلي. كنت أتصور نفسي طياراً أمريكياً مقاتلاً محلِّقاً فوق المحيط الهادي؛ كان خيالي شديد الخصوبة إلى درجة أنني كنت أحس في جسدي بأنني واحد من الطيارين المحلِّقين بطائراتهم فوق الأمواج.

كنت أكره الألمان واليابانيين لأنهم كانوا أعدائي. شاهدت مئات الأفلام الروائية والوثائقية عن معسكرات الاعتقال. بدت لي رهيبة ومرعبة. ثمة صورة هتلر، الأجساد الهزيلة وأكوام الجثث كانت شراً خالصاً.

أما اليابانيون فكانوا مختلفين. كنت مبهوراً بانتحاريي الكاميكاز، بصور هؤلاء وهم ينقضّون على حاملات الطائرات الأمريكية التي كانت تتحول إلى كتل نارية ملتهبة. صحيح أنهم كانوا من الأعداء، بالطبع، غير أنني كنت أيضاً معجباً بهم ومتفهماً لهم. ففي مواجهة عدو أقوى بكثير، أقدموا على فعل الشيء الوحيد الذي كان يمكن فعله لإنقاذ وطنهم وشرفهم.

كذلك كنت مولعاً بالخيال العلمي. عشقت حرب العوالم وبقيت مدمناً على رحلة إلى النجوم. لم نكن نملك جهاز تلفزيون في البيت في بروكسل مما كان يدفعني حين أكون هناك أيام العطل والأعياد إلى الخروج ليلاً لمتابعة رحلة النجوم على شاشات تلفزيونات محلات بيع الأجهزة الإلكترونية.

في وقت مبكر، تصورت نفسي مخلوقاً قادماً من كواكب أخرى. أحياناً كنت أسمع طنيناً في أذني وأتصوره رسالة آتية من الفضاء الخارجي. كثيراً ما كنت، فيما كان الصبية الآخرون مشغولين بكرة القدم، أمشي إلى أحد الملاعب، حيث أرفع يدي في الهواء وأغمض عيني وأتخيل قوة هائلة تمتصُّني وتنقلني إلى قلب الفضاء.

ربما مَيَّزَني إدوار لأنني كنت متميزاً. كان بالغ اللطف معي، وكثيراً ما كان يأتي ليجلس بجانبي حين يلاحظ أنني كنت وحدي. كنت أنبهر بسائر أنواع الموضوعات العلمية وأقضي ساعات طويلة وأنا أصغي إلى كلامه عن النجوم والطاقة والقوة النووية. كنت مغرماً به؛ كان إدوار الرجل الأول الذي اهتم بي، الذي حاول أن يعلمني أشياء معينة. وأنا كنت راغباً في التعلم لأن ذلك كان يسعده كما كنت أرى.

غير أنني كنت شديد الرغبة في التعلم عن البنادق أكثر من أي أشياء أخرى. منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى المكان، علمت أن هناك أسلحة في القلعة. كنت أسمع أصوات إطلاق نار في الليل. كان ثمة قاعة رمي في القبو الذي لم يكن كاتماً للصوت.

ذات عصر وجدني إدوار وحيداً وطلب مني أن أتبعه. أخذني إلى القبو. كان المشهد مذهلاً. كان يملك جميع أنواع البنادق والمسدسات التي يمكن للمرء أن يتخيلها. ثمة كانت أعداد من المسدسات، البنادق، البوارید، كل الأسلحة. طاف

بي على الأسلحة ولقّنني اسم كل منها، مفسراً غرضه: ماغنوم 44، سميث آند وَسُّون 45، بارودة 22، مارلن 44، وإلخ.... وقعت في حبها مباشرة.

خلال الأشهر، ومن ثم الأعوام، التالية، كان إدوار سيعلِّمني أسلوب استخدام كل من هذه الأسلحة. صحيح أنه كان يعلِّم صبية آخرين أيضاً، غير أنني كنت أكثر منهم اهتماماً فأصبح الأمر شيئاً يخصنا نحن الاثنين إدوار وأنا معاً. كان سيصطحبني إلى القبو أو إلى أحد الحقول في الهواء الطلق للتدرب على الرمي وإصابة الأهداف. أحياناً كانت الأسلحة ضخمة إلى درجةٍ أنها كانت تبطحني أرضاً بعَزْمِ ارتدادها، فيضحك إدوار. كنت مغرماً بالانضباط الذي يرافق التعامل مع الأسلحة. كنت سعيداً جداً بتحسن أدائي المطرد كل الوقت. وكان الفرح يغمرني لدى قيام إدوار بكيل المديح لي.

كذلك تعلَّمت فن تصنيع الطلقات خلال وجودي معه. فالذخائر باهظة الثمن وكنا نستخدم كميات كبيرة منها. وبالتالي فإننا كنا نجمع الأغلفة الفارغة بعد كل حفلة رمي لاستعمالها مرة أخرى. كنا نحرر أيَّ نتفٍ من الرصاص من أي شيء نعثر عليه ـ أغطية المداخن، أنابيب التمديدات في البيوت القديمة. علمني إدوار كيف أذيب الرصاص وأصنع منه قذائف طلقات جديدة، وكيف أملأ الفوارغ بالبارود. إن تصنيع طلقة ليس سهلاً؛ إنه فن بالغ الدقة. إذا حشوت الغلاف بكمية أكثر مما ينبغي من البارود، فإن الطلقة قد تنفجر داخل البندقية فتنفجر في وجهك. تعلَّمت كيف أتحلى بقدرٍ كبير من الحرص والحذر.

مع مرور الزمن أدركت أن إدوار كان يستخدم البنادق لتعليمي الانضباط. كنت ولداً عنيداً، مستقلاً جداً. ولم أكن مهتماً بالمدرسة. غير أن إدوار لم يكن يسمح لي باستخدام البنادق ما لم أنجز وظائفي البيتية مما جعلني أبقى عاكفاً على كتابة وظائفي أكثر الليالي. بدأت أغدو طالباً أفضل، وراح إدوار يغرقني بالمديح لذلك أيضاً.

إلا أنني لم أكن ملاكاً. ما إن أصبحت أكبر سناً، في الخامسة عشرة من العمر، حتى اشتبكْتُ في شجار رهيب مع إدوار. أردت أن أكون معه في السهرة مطلقاً النار وصانعاً للخرطوش. سألني عما إذا كنت قد أتممت وظائفي المنزلية وأفدته بأنني كنت قد فعلت. أمضيت الليل كله في القبو مع الرشاشات والمسدسات. غير أنني كنت قد كذبت بشأن وظيفتي، الأمر الذي اكتشفه إدوار في اليوم التالي. كان شديد الغضب مني. صرخ بأعلى صوته:

- 'لماذا كذبتَ علي؟ أنت تتوهم أنك ستنجو بكذبتك؛ أليس كذلك؟'

بدأ وجهه يحمر. لم يكن قد سبق لي أن رأيته هكذا. راح يعنِّفني بصوت مرتفع، وكانت ثمة نظرة سخط خالص في عينيه واستياء شديد في تعابير وجهه.

- 'أنت متوفر على كل شيء. أنت ذكي، تستطيع أن تفعل كل ما أنت راغب في فعله في هذا العالم غير انك تفضّل، بدلاً من ذلك، أن تكذب علي أنا. أنت عديم الضمير والوجدان.'

ثم، وقبل أن يدير ظهره أطلق عبارة لم أنسها قط: 'لا أعتقد أنك ستصبح شيئاً، أي شيء، على الإطلاق.'

بقيت في منزل الرعاية بضعة أشهر أخرى بعد الشجار، غير أن ذلك كان الحوار الحقيقي الأخير الذي كان لي مع إدوار. كانت ثمة قطيعة، حالة جمود بيننا.

'لا أعتقد أنك ستصبح شيئاً، أي شيء، على الإطلاق.'

على امتداد سنوات طويلة بعد ذلك كنت سأظل أسمع أصداء كلمات إدوار. وهي الجامعة بين الإهانة من جهة والتحدي من جهةٍ ثانية. مترددة في رأسي. في البداية قررت أنه كان على صواب. لاحقاً، كنت سأبذل كل ما استطعته من جهد لأثبت أنه كان على خطأ.

المغرب

حين بلغت الخامسة عشرة عدت إلى طنجة مع أهلي. مشكلاتي الصحية كانت قد انتهت، وكان أبي قد توقف عن العمل في بروكسل. في البدء ظننت أن العودة كان من شأنها أن تكون عودة رائعة إلى مسقط الرأس. لم أكن قد شعرت بأنني في وطني وأنا في بلجيكا على الإطلاق، مما أبقاني تواقاً إلى وطني الحقيقي: المغرب.

كلما طال بُعدي عن المغرب زاد جمالاً وبهاءً. بات يحدد هويتي. كلما زادت سنوات عمري باتت الأشياء التي تشعرني بأنني مختلف في بلجيكا مصدر اعتزازي. كنت عربياً، مسلماً. كنت أفْضَلَ من هؤلاء الأوروبيين البيض.

أما بعد أن عدت أخيراً إلى المغرب فسرعان ما أدركت أن الأخير لم يعد وطناً لي من أي نوع. شعرت بالغُربة هنا كما في بلجيكا. وعلى نحوٍ شبه حصري بقيت لا أتكلم سوى اللغة الفرنسية منذ أن كنت في الخامسة من العمر، ولهجتي ومفرداتي القديمة كانت أكثر تشذيباً من نظيراتها لدى معظم الصبية المغاربة. كان هؤلاء يسخرون من كل شيء: ملابسي، بل وحتى الرائحة التي تفوح مني. كانت أمي قد بدأت تستعمل بعض المواد المطرِّية للجلد في بلجيكا، وهي مواد لم يسمع بها أحد في المغرب. كان الصبية يقولون إن رائحة كرائحة الكفار كانت تفوح مني كما لو كنت مسيحياً.

أحسست بأنني أصبحت أقسى. البلد الذي كنت أحبه لم يعد يحبني بالمقابل فتضاءل حُبي له باطّراد. وسرعان ما بدت بلجيكا المكان البعيد الأفضل وصار المغرب يبدو بالغ الضعف، شديد التخلُّف بالمقارنة. صرت أفتقد الحرية الأوروبية، الطريقة التي يستطيع الناس بها أن يتكلموا بصراحة، الأسلوب الذي كان يستطيع به رجل وامرأة أن يكونا معاً دون خوف. الطريقة التي كان الناس يتجادلون بها على المكشوف حول كل شيء.

أما المغرب فكان، بالمقابل فاسداً وقمعياً. الرشاى كانت في كل مكان ـ عَظْمة لهذا وأخرى لذاك. لم يكن ثمة أي أسلوب آخر لتسيير الأمور. كانت الحكومة غارقة في بحر من الفساد. الرشاى، الوساطات، العمولات وصولاً إلى إقحام البلد في وضع كارثي. لم يكن ثمة أي برامج رعاية اجتماعية يمكن الحديث عنها. الطرق محفَّرة وممزقة أشلاء، اللهم إذا كانت ثمة أي طرق بالمطلق. القطارات والحافلات ـ كوارث مئة بالمئة. كانت الشرطة حاضرة في كل مكان وكان الجميع يعيشون في خوف. جميع الجدران كانت لها آذان: الجيران يتجسسون على الجيران، وبالتالي لم يكن أحد يتحدث عن أي شيء مهم. بدا كل شيء طَبَقياً: من يملك الثروة وبأي مقدار؟ أي شخص بلا مال كان يَلْقى معاملة النفايات. حَقَدْتُ على ذلك.

كنت قد أصبحت بعيداً عن أهلي أيضاً. حصل الافتراق في أثناء غيابي. كنت اشعر بنتف من الأمر حين كنا نقضي إجازات الصيف في المغرب. والدي الذي كان مغربياً أنموذجياً بدا بطريركاً حقيقياً وكان يعامل أمي معاملة بالغة السوء. كانت له عشيقات كثيرات، غير أنه كان يلتهب غيظاً حين يلاحظ عندها أبسط مؤشرات الاستقلالية. أحياناً كان يضربها، بوحشية غالباً. كان أشقائي وشقيقاتي جميعاً يعرفون هذا، غير أننا لم نكن نناقشه على الإطلاق.

أمي كانت ملاكاً. مرة، وقد كنت في العاشرة، كنا، هي وأنا، نستعرض ألبوم صور. جميع الصور كانت لأهلها، وراحت وهي تُقَلّبها تزوِّدني بأسماء أصحابها. كان الألبوم زاخراً بعدد كبير من صور الفتيات الجميلات (للتو كنت قد بدأت أنتبه إلى البنات). طلبتُ من أمي أن تحدثني عن كل واحدة، ثم رحت أسأل عما إذا كنت أستطيع الزواج منها بعد أن أكبر. كانت أمي تضحك كل مرة وتقول إن أفراد العائلة لا يستطيعون الزواج من بعضهم البعض.

حين وصلنا إلى آخر الألبوم كانت ثمة صورة فتاة صغيرة استثنائية الجمال غير أن أمي أغلقت الألبوم قبل أن تتاح لي فرصة معاينة الصورة.

شَكَوْتُ قائلاً: 'لم تحدثيني عن الأخيرة يا ماما!'. اختطفتُ الألبوم من يديها وفتحته من جديد على الصفحة الأخيرة. أشرتُ إلى صورة فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ذات شعر أسود.

ابتسمت أمي وقالت: 'لست بحاجة لأن تعرف عنها. ليست من أقربائك.'

طرتُ فرحاً وقلتُ: 'إذن أستطيع أن أتزوجها!'

'ربما إذا كنت ناجحاً في المدرسة.' ضحكت أمي وبقيت مصرة على عدم ذكر اسم الفتاة.

استقرت الصورة في عقلي وبقيت حيث هي، وبعد سنوات سألت أمي ثانية عن اسم الفتاة. فوجئتْ بالسؤال.

'ألم تتعرف عليها؟'

'لا'

'إنها صورتي أنا كطفلة، أمك ماماك!' ثم ضحكتْ مرة أخرى؛ عيناها التمعتا فرأيتُ فيهما الفتاة التي كنت قد رأيتها في الصورة.

بعد عودتي من بلجيكا ببضعة أشهر، حصل أبي على وظيفة في بلدة سيدي قاسم الواقعة وسط المغرب. أراد أن ننتقل معه جميعاً إلى هناك. فطنجة كانت مدينة مزدحمة، كوزموبوليتية، شبيهة بمدن أوروبا أكثر من أي شيء مغربي آخر. أما بلدة سيدي قاسم فلم تكن سوى بؤرة خلفية في قلب الجزء المتخلف من البلد.

تشاجر أبواي حول الأمر كل الوقت.

ذات يوم، عاد أبي إلى البيت وهو لا يزال غاضباً من الشجار الحاصل في الليلة السابقة. كنتُ في البيت مع أمي وشقيقي الأكبر حكيم حين دخل. مباشرة

بدأ يصرخ معنِّفاً أمي. كنا معتادين على صراخه. غير أن والدي بدأ بعد ذلك يَرْكُلُها، وقعتْ على الأرض.

نظرت إلى أخي لأرى ما إذا كان بوسعنا أن نفعل شيئاً. كنت معتاداً على تلقي الأوامر من حكيم؛ فقد كان أخي الأكبر ولم يكن يسمح لي قط بأن أنسى هذه الحقيقة. كان قوياً، وكنت فخوراً به أخاً لأنه كان حامياً لي ولكل من أشقائي وشقيقاتي. لدى توفره على المال كان يأخذنا إلى السينما ويعطينا عدداً من الفرنكات لننفقها نحن بأنفسنا.

أما الآن فإن حكيماً أصر على التغافل حتى عن نظراتي المتسائلة؛ اكتفي بالنظر إلى الأرض خافضاً رأسه. كان على صواب، بالطبع. بوصفنا مسلمين لم يكن مسموحاً لنا قط بأن نتحدى سلطة والدنا الكلية. غير أن أمي كانت تبكي وتزعق مستغيثة، واستطعت أن أرى أنها كانت في حالة رُعب شديد. لم أستطع أن أطيق المشهد.

كنت الآن أكبر من أبي جسداً ولم يعد يخيفني. تقدمت نحوه وسحبته من فوق أمي. رفعته عن الأرض وحملته إلى خارج البيت وأجلسته على الأرض. حدّقت في عينيه وتمكنت من أن أرى أنه كان شديد الحنق مني أنا، ولكنه كان خائفاً أيضاً. لم أعد مبالياً بما كان يدور في رأسه.

قلتُ له: 'إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى'. ثم دخلت الدار وأغلقت الباب ورائي. كانت أمي صامتة. استعطت أن أرى أنها كانت لا تزال في حالة رعب، ولكنها مندهشة أيضاً إزاء ما كنت قد فعلته. نظرت إلى حكيم، غير أنه بقي مُطْرِقاً. ظل مثبِّتاً ناظريه على الأرض.

قام أبي، بالطبع، بإعادة الكَرَّة - مرات كثيرة. إلا أنني لم أكن موجوداً لأكون شاهداً. بعد بضعة أشهر من الشجار، حصلت على وظيفة في أحد قوارب

الركاب ورحت أطوف حول العالم. كنت سعيداً بأن أكون بعيداً ـ عن المغرب، عن أهلي، عن كل شيء.

حين عدت كانت أمي قد رحلت. كانت أخيراً قد طلّقت أبي وعادت إلى بلجيكا مع بعض إخوتي وأخواتي. غير أن الأمر لم يزعجني كثيراً لأنني كنت قد أصبحت شديد الغربة عن أهلي.

خلال السنوات العشر التالية عشت في المغرب وحدي، أحياناً على أرصفة الشوارع، وأحياناً في الفنادق، تبعاً لتوفري أو عدم توفري على المال. أكثرت من الشراب والدخان والحشيش على نحوٍ يومي؛ أسرفت في الاستماع إلى الموسيقا الجامايكية الصاخبة (الراغاي)؛ وبالغت في النوم مع أعداد كبيرة من الفتيات. لم أفكر بالمستقبل على الإطلاق. اعتمدت شعار: اصرف ما في الجيب دون تردد! ولم أكن أبالي كثيراً حين تبقى جيوبي خاوية.

بداية عملت دليلاً سياحياً، وصرت أوقع السياح في شراك باعة السجاد. كنت فناناً في ذلك. أمضيت وقتاً طويلاً وَحْدي في طفولتي وأنا أراقب الآخرين مما جعلني مؤهلاً لقراءتهم. كنت أستطيع أن أفهم شخصية كاملة من مجرد الوقوف على تفاصيل قليلة: انحناءة الحاجب، حركة اليد، طريقة المشي. كنت أعرف غريزياً كيف أقتنص الأجانب الأكثر هشاشة، أولئك الذين يمكن إخضاعهم للضغط بسهولة. في ثوانٍ قليلة كنت أستطيع أن أقرر ما إذا كنت قادراً على ابتزاز المال من شخص معين أم لا.

السياح الآتون من المغرب طلباً للحشيش كانوا أكثر من الآتين بحثاً عن السجاد، وبالتالي، سرعان ما تحولت إلى احتراف الوساطة بين المنتجين (منتجي الحشيش) في أعالي الجبال والسياح في المدن. خلال فترة قصيرة أصبحت أبرم صفقات بمئات الكيلوغرامات من الحشيش، ليس للسياح وحسب بعد الآن، بل

وللزبائن فيما وراء البحار أيضاً. كانت التجارة دسمة جداً وتلك كانت هي المسألة.

كانت شوارع طنجة ملأى بأفراد الشرطة. لم يكونوا هناك إلا لحماية السياح من المحتالين من أمثالي في المقام الأول. ثمة كان عدد كبير من عناصر الأمن السريين وسرعان ما أتقنت فن الاهتداء إليهم في قلب الحشود. كنت أتابعهم وهم يلقون القبض على شباب في السوق كانوا يعرضون بضائعهم المهربة - العطور الرخيصة، الأجهزة الإلكترونية، لوازم التواليت المهربة من أوروبا - ناشرينها على البطانيات في الساحة. كنت أعاين تحركات عناصر الشرطة وهم يتسللون خلسة نحوهم من الخلف لإلقاء القبض عليهم. كنت أدرس أسلوب تحركهم. تعلَّمت كيف أتعرف على أي شرطي من تعابير الوجوه - تلك التعابير الحادة، بالغة الجدية. كنت قادراً على التعرف عليهم غريزياً بعد فترة، مما جعلني أغْدو مؤهلاً لتجنبهم.

كنت سمساراً جيداً وسرعان ما ذاع صيتي. بدأ الناس يقصدونني التماساً للمساعدة في حل المشكلات الصعبة. اثنان من صحفيي جريدة البايس (El Pais) اهتديا إليَّ حين أرادا كتابة مادة عن موضوع تهريب المهاجرين بين طنجة وسَبْتة. كانت تلك مهنة خطرة في المغرب وبالغة السرية. غير أنني ما لبثت أن مكَّنْتُهما من الإمساك بضالّتهما، ونجحا في التقاط مئات الصور. فيما بعد صحفي ثالث طلب مني أن أرافقه إلى جامعة فاس في أثناء أعمال الشغب. كانت الحراسة مشددة على الجامعة في ذلك اليوم؛ كانت أعمال الشغب قد أصبحت عنيفة، وبالتالي فإن أحداً لم يكن يدخل. غير أنني استطعت في الليل أن أُدْخِل الصحفي خلسة. أقنعت بعض الطلاب بالتكلم معه، وبقيت معهم الليل كله متولياً مهمة الترجمة.

غير أن أشياء معينة كانت شديدة الخطر حتى بالنسبة إليَّ. ذات يوم جاءني ألمانيان درجتُ على بيعهما مادة الحشيش بعرض. أرادا شراء الحشيش بالأسلحة. زوَّداني بقائمة شاملة لكل الأسلحة المتوفرة للبيع. لم تكن القائمة قابلة للتصديق. كانا متوفرين على رشاشات الكلاشنكوف، الدبابات، راجمات الصواريخ، الطائرات القتالية. كان هذا أواخر ثمانينيات القرن الماضي مع تعرض الإمبراطورية السوفيتية للانهيار. فالجنرالات السوفييت كانوا يبيعون كل ما بحوزتهم مقابل مبالغ نقدية قبل أن يتم تجريدهم منها. كانت أنهار السلاح تتدفق على أوروبا؛ باتت مختلف أنواع الأسلحة متوفرة لمن يرغب في الحصول عليها.

'هل أنتما مجنونان؟' سألت الألمانيين بعد الاطلاع على القائمة. 'محظوظان أنتما إذْ جئتُما إليّ أنا. أي شخص غيري كان سيبيعكما للبوليس، وكنتما ستمضيان الباقي من حياتيكما هنا في السجن.' لا أحد يتعامل بالأسلحة على ذلك النحو في أي بلد مسلم ولاسيما في المغرب. كان الألمانيان سيغيبان في السجون لو أُلقي القبض عليهما. كانا سيتعرضان للتعذيب، وما كانا سيخرجان أبداً. أحرقت الورقة بسرعة ولم نعد إلى الكلام عن الموضوع مطلقاً.

حكيم

كنت في السادسة والعشرين من عمري عندما قُتل أصغر إخوتي: عادل. أصيب بطلقة في مدرسة ببلجيكا. كانت حادثة عرضية: أحد أصدقائه جلب مسدساً إلى المدرسة وكان الاثنان يلعبان به حين انطلقت الرصاصة التي اخترقت قلب أخي مباشرة فقضى في ثلاث دقائق. كان في الرابعة عشرة من عمره.

كنت في طنجة عند وقوع الحادثة. علمت بها من صديق للعائلة يُدعى جواد كان يعمل في إحدى صَيْدَليات البلدة. كنت أمر بمحله كل بضعة أسابيع لأن أمي كانت أحياناً ترسل لي بعض المال برقياً من خلاله وكنت أنا أذهب لاستلام المبلغ

النقدي. في ذلك اليوم، ما إن دخلت حتى تنحى بي أحد المستخدمين جانباً. بدا متجهماً وجدياً. أخذني إلى مكتب جواد. ما إن تجاوزت عتبة الباب حتى بادرني جواد قائلاً إن لديه أخباراً لي وطلب مني أن أجلس.

قال: 'أخوك عادل قضى منذ يومين' وزوَّدني بالتفاصيل.

لم أُفاجأ، بل ولم أتضايق. لم يكن الموت يزعجني على الإطلاق. كنت على الدوام مقتنعاً بأن الرب لم يكن يفعل شيئاً إلا لسبب. ومَنْ أكون أنا لأتحدى مشيئته؟ إذا رأيت أحداً يعاني، أتعاطف معه بعمق. ذلك يمزق أحشائي. أما الموت فيعني أن الأمر انتهى. ليس ثمة أي مزيد من المعاناة.

قبل بضع سنوات كان جدي قد توفي. كان يعاني من مرض عضال وكان عدد كبير من أفراد العائلة مجتمعين حوله لحظة رحيله عن هذا العالم. راح الجميع يبكون وينوحون، أما أنا فلم أشعر بشيء. صحيح أنني كنت أحب جدي، ولكنه كان قد كَفَّ عن أن يكون لي. بات عائداً إلى الرب، لقد استعاده الله.

بعد بضعة أسابيع صادفْت حيكماً، أكبر إخوتي سناً، في الشارع. لم أكن أتوقع رؤيته، إلا أنه أخبرني بأنه كان قد عاد إلى طنجة لدفن أخينا وبأنه كان سيمكث بعض الوقت. صُعقت تماماً بمنظره. لم أكن قد رأيته منذ ما يزيد على سبع سنوات، وكنت أتذكره رجلاً وسيماً، بالغ الحدة جذّاباً. كان يدخّن، يعاقر الخمر، يحضر الحفلات، مصاحباً للنساء على الدوام.

أما الآن فكان كلُّ شيء مختلفاً. كانت لحيته طويلة وكان يرتدي جلباباً. في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيته في جلباب. وكان ثمة عود سواك بين أسنانه. والمسواك هذا نوع من العيدان المجلوبة من الشرق الأوسط التي أوصى النبي محمد (ص) أتباعه باستخدامها تطهيراً لرائحة الفم قبل الصلاة. واستخدام المسواك مقصور على الأكثر تقوى من المسلمين.

كان حكيم لا يزال قوياً؛ لم يكن قد تغير على هذا الصعيد. مشى باتجاه منزل إحدى أخواتنا، ولدى وصولنا طلب مني أن أتوضأ. سألتُه:

'ولماذا؟'، أجاب:

'لنذهب إلى المسجد ونقيم الصلاة.' رفضتُ قائلاً:

'أنا لن أصلي.' لم أكن قد دخلت مسجداً منذ سنوات، وبدت الفكرة لي مثيرة للسخرية.

رد علي حكيم، قال: 'لقد تُوفي أخوك. علينا أن نقيم صلاتنا.'

أخيراً أَذْعَنْتُ، لا إكراماً لروح عادل، بل لأنني بدأت أدرك أن من الممكن أن أكسب شيئاً من هذا. كنتُ قد مَلَلْتُ كثيراً من المغرب؛ أصبحت شديد الكره للحياة التي كنت أعيشها. كنتُ راغباً في العودة إلى بلجيكا. أيقنت أن حكيماً كان قادراً على مساعدتي على الانطلاق هناك، مساعدتي على العثور على عمل. توضّأتُ ورافقته إلى المسجد لأداء الصلاة.

أمضيت تلك الليلة في بيت أختنا، وفي الصباح أبلغني حكيم بأننا كنا ذاهبين إلى الدار البيضاء. لم أرغب في الذهاب إلى هناك. كانت عندي مشاغل أخرى هنا وأبلغته عدم رغبتي في مرافقته إلى الدار البيضاء. اعترض قائلاً بحسم:

'يجب أن ترافقني. لابد لك من أن تغيّر حياتك. أنا أريد مساعدتك.'

أقنعت نفسي بجدوى الأمر ورافقت حكيماً إلى الدار البيضاء. على الطريق سألته عما كنا سنفعله بعد أن نصل إلى هناك.

قال: 'ثمة فريق من الإخوة في الدار البيضاء أريد جمعك بهم. أريدك أن تقضي بضعة أسابيع معهم. أريدك أن تتعلم منهم لأن عليك أن تعود إلى الله.'

'أما الآن فأنت طاغوت' أضاف حكيم مؤكداً أنني لم أكن طاهراً. 'يجب عليك أن تعود إلى الله.'

لم تكن لدي أي فكرة عما كان يتحدث عنه، أو عن هوية هؤلاء الإخوة. غير أنني كنت عازماً على الخروج من المغرب في هذه الفترة، مما جعلني أتظاهر بالاهتمام والتعبير عن الشكر.

في الدار البيضاء، قابلنا الإخوة في أحد الجوامع. بعد الصلاة عدنا جميعاً إلى طنجة سوية. كان حكيم سيتركني هنا لمدة شهر؛ أفاد بأنه كان مشغولاً ببعض الأمور في المغرب خلال هذه الفترة.

على امتداد ذلك الشهر ظل أصدقاء حكيم يراقبونني للتأكد مما إذا كنت أعيش حياة تقوى. كنت أحرص على أداء الصلوات الخمس في اليوم؛ كانت العودة إلى نمط الحياة التي كنت قد تعلمتُها أيام الطفولة سهلة. غير أنه تعين علي أيضاً أن أُقْلع عن التدخين والشرب، وكان ذلك أكثر صعوبة. إلا أنني كنت مصمماً على الصمود، على التحمل، لأنني كنت أرى هذا الاستعراض كله وسيلة لبلوغ غاية محددة.

بعد عودة حكيم، عشنا مع أختي مدة ستة أسابيع. خلال هذه الفترة كنا دائمي الكلام عن الإسلام. لقَّنني حكيم السلوك الذي يتعين علي اعتماده بوصفي مسلماً حقيقياً: طريقة المشي، أسلوب الصلاة، نمط الملبس. تعلمت المشي مطرقاً، وأنا أنظر إلى الأرض، بالزاوية نفسها على الدوام، عدم التواصل مع الناس في الشارع عن طريق العيون، عدم النظر إلى ما فوق الذقن من وجه أي امرأة. تعلمتُ كيف ألبس. لا يجوز لأي قماش أن يصل إلى ما تحت الكاحل (رسغ القدم) - لأن ذلك دليل غرور. لابد للرأس من أن يبقى مغطى دَرْءاً للشيطان.

كذلك تعلَّمْتُ الأسلوب الصحيح في الصلاة. تعلمت أن أقف وقدماي مضبوبتان إحداهما إلى الأخرى، مع لصق كتفي بكتف الأخ الواقف بجانبي.

تعلمت ألا أنظر إلى قدمي عند الركوع، أن أدرب عيني على النظر إلى الأمام بدلاً من ذلك، على التركُّز على النقطة التي ستستقر عندها جبهتي عندما أسجد بين يدي الله.

علّمني حكيم هذا كله. حدثني أيضاً عن الجهاد، عن المعركة التي يواصل المسلمون الأتقياء خوضها باستمرار داخل نفوسهم لإثبات ولائهم لله. قال لي بأن علي أن أترك كل شيء لله، أن أثق به كلياً وأتكل عليه في كل شيء، وألا أحتفظ بأي شيء لي شخصياً. غير أن تخلّيَ عن كل شيء لله لم يكن كافياً؛ كان لابد من فعل المزيد. لا تكفي إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم. يجب علي أن أصلي باستمرار، أن أتوب واستغفر في كل لحظة عن كل ما هو غير طاهر في شخصي.

بدأت ألاحظ أن شفتي حكيم كانتا دائمتي الحركة، على نحوٍ يكاد لا يُرى. لم أنتبه إلى أن أدركتُ حقيقة ما كنت أراه.

حكيم وأنا أمضينا وقتاً طويلاً ونحن نتحدث عن السياسة، عن المظالم التي يتعرض لها المسلمون في أرجاء العالم المختلفة. كنا في أواخر عام 1993 وكانت الحرب في البوسنة دائرة منذ ما يقرب من عامين، مثلها مثل الحرب في الجزائر. كنت مطلعاً على هذا كله قبل عودة حكيم إلى المغرب بوقتٍ طويل. وما من مسلم إلا وكان واقفاً على هذه الحقائق.

غير أنني كنت أكثر إحاطة بالوضع في أفغانستان من أي وضع آخر. مثل جميع الشباب في المغرب كما في طول العالم الإسلامي وعرضه، كنت قد تابعت قيام الجيش الأحمر باجتياح أفغانستان سنة 1979. ومثل الجميع كنت أكره الروس. كان لابد من أن نكرههم على أي حال. فقد غزوا بلداً مسلماً. غير أن تلك كانت نهاية الحرب الباردة، لقد كنت أعتقد أن المغرب متحالفاً مع الولايات المتحدة. فالتلفزيونات، الجرائد. كانت جميعاً خاضعة لأمريكا عبر النظام المغربي

الألعوبة وملأى بالدعايات المعادية للسوفييت. كانت تحرِّضنا جميعاً. وأنا، مثل جميع الشباب، كنت أحلم بالقتال جنباً إلى جنب مع المجاهدين في أفغانستان.

غير أنني تعلَّمت أشياء أكثر بكثير عن الحرب أوائل التسعينيات، بعد انسحاب السوفييت. ذات صيف، قمت برحلة في أوروبا دامت نحو شهرين مع فتاة التقيتُها في المغرب. انقطعت علاقتي بها بعد مدة قصيرة. وقبل عودتي إلى الوطن، ذهبتُ إلى باريس وحدي. كان الموسم صيفاً وأمضيت كثيراً من الوقت وأنا لا أفعل شيئاً سوى التجوال في المدينة. في أحد الأيام مررت بمركز بومبيدو الثقافي. لم يكن قد سبق لي أن سمعت شيئاً عن هذا المركز كما لم أكن أعرف ما بداخله، إلا أنني رأيت صفاً طويلاً من الناس ينتظرون الدخول؛ وَقَفْتُ في الصف فضولاً.

كانت النتيجة أنني أمضيت ثلاثة أشهر في باريس، في مركز بومبيدو الثقافي أكثر الوقت. ثمة مكتبة مذهلة، وقد التهمت كل ما وقعتْ عليه عيني: التاريخ، الأديان، العلوم. إلا أنني أمضيت الجزء الأكبر من الوقت مع مواد عن الغزو السوفييتي لأفغانستان. ثمة كانت مجموعة خارقة للعادة من الأفلام الروائية والوثائقية عن كل من السوفييت والمجاهدين.

هؤلاء الرجال بدوا مدهشين، أناساً لم يسبق لي أن رأيت مثلهم. شاهدت أحد الأفلام مرات عديدة؛ كان فلماً عن رجل ذي لحية طويلة واقف داخل دبابة. فيما بعد علمت أنه قُتل في إحدى معارك كابول، إلا أنه بدا بالغ الروعة والمجد السماوي في الفلم. استطعت أن أقرأ في وجهه مدى عمق التزامه، إيمانه. كان ينادي: 'هيا إلى التكبير! الله أكبر! الله أكبر!.'

البلاد هي الأخرى كانت جميلة. لم يكن قد سبق لي أن رأيت مثل تلك الجبال السمراء غير الاعتيادية. شاهدت المزيد والمزيد من الأفلام حتى بدأت أشعر بالقضية في جسدي، بالحاجة إلى الدفاع عن هذه الأرض الجميلة.

في أحد الأفلام كان المجاهدون جالسين على حافة أحد الأودية فيما كانت قافلة سوفيتية زاحفة متسللة في قعر الوادي. انفجار مباغت. ثُمَّ آخر. وبعده ثالث. تطايرت الدبابات السوفيتية الواحدة بعد الأخرى قاذفةً كتلاً كثيفة من الدخان واللهب إلى الجو. يجب أن يكون الفلم من تصوير أحد المجاهدين أو أحد مرافقيهم لأنني رأيت المشهد كله من خلال عينيه. من قمة التلة في الأعالي تمكنت من رؤية جنود يتدحرجون من الدبابات ويسقطون على الأرض. ومن ثم كنا مندفعين انحداراً إلى قعر الوادي. سرعان ما وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع الروس. انطلقت رصاصة ـ أحد الجنود سقط على الأرض. ثم آخر. بام بام. بام.

غير أن عدداً ضئيلاً من الجنود كانوا لا يزالون على قيد الحياة. راقبت مجاهداً يرفع رأس أحد السوفييت لإبراز رقبته فيما كان مجاهد آخر يرفع سيفاً ليهوي به على الرقبة. أظلم الفلم لثانية واحدة. ومع عودة الإضاءة كنتُ قادراً على رؤية جَسَد الجندي الهامد بلا حياة مع بقة سوداء مثبتة حيث كان ينبغي للرأس أن يكون.

كذلك تعلّمت أشياء كثيرة عن الوضع السياسي داخل أفغانستان. تابعت عدداً كبيراً جداً من المقابلات مع جنود روس عائدين من خطوط الجبهة، ومن هؤلاء بالذات كنت قد سمعت عن أحمد شاه مسعود وغُلْب الدين حكمتيار، اللذين دأبا على مقاتلة السوفييت بشراسة في الثمانينيات. في الأفلام، كان السوفييت العائدون من الجبهة يتحدثون عن مدى حقدهم على حكمتيار؛ كانوا يصورونه مجنوناً بلا عقل؛ قاتلاً دون تميز، للمسلمين المنافسين كما للسوفييت. إلا أنهم كانوا معجبين بمسعود، أسد بانجشير. كانوا يقدِّرون شجاعته وذكاءه الحادة.

وهكذا فإنني كنتُ، لدى مجيء حكيم إلى المغرب في 1993، مطلعاً، سلفاً، على أشياء كثيرة عن أفغانستان. في تلك الأثناء كان الجحيم كله قد تفجر

هناك. كان السوفييت قد انسحبوا. أمراء الحرب كانوا مشتبكين في معارك مع نظرائهم، أمراء الحرب الآخرين، سعياً إلى إحكام قبضة تحكمهم بالبلاد، والمسلمون كانوا يقتلون المسلمين. كان حكمتيار يحاول تعزيز نفوذه وسطوته عبر محاصرة كابول والتسبب بإزهاق الآلاف والآلاف من الأرواح.

حاول حكيم إقناعي بأن حكمتيار كان مسلماً ورعاً عاكفاً على خوض معارك جهادية حقيقية. عارضته مئة بالمئة. بنظري لم يكن إلا خزياً وعاراً. فالمجاهدون الذين سبق لي أن رأيتهم في الأفلام كانوا يقتلون الغزاة، الكفار، لا المسلمين الآخرين. تشاجرت مع حكيم غير مرة حول هذا الموضوع.

تصادمنا كثيراً خلال هذه الأسابيع في طنجة، كما كانت عادتنا على الدوام. غير أن كلاً منا. كان يريد شيئاً من الآخر: حكيم كان يريدني أن التحق به وأتبنى عقيدته الأصولية، أما أنا، فكنتُ أريده أن يأخذني إلى بلجيكا ويجد لي عملاً هناك؛ فتظاهرنا بأننا متعايشان ومتفقان.

التفت إلي في أحد الأيام ليقول: 'ما الذي تريد أن تفعله بحياتك يا عمر؟'

قلت: 'أريد أن أذهب إلى البوسنة، للالتحاق بصفوف المجاهدين.' مدركاً أن هذا ما كان يحلو لحكيم أن يسمعه، غير أنه كان صحيحاً تماماً في الوقت نفسه. فمنذ أن كنت قد شاهدت تلك الأفلام في باريس، كنت قد أصبحت توّاقاً لأن أصبح مجاهداً. كنت راغباً في أن أفعل شيئاً حقيقياً بحياتي، والبوسنة بدت كما لو كانت المكان الملائم. كنت قد قرأت عن البوشناق ورأيت أفلاماً عنهم. كنت شديد التماهي معهم، ربما لأنهم بدوا أوربيين جداً. فأنا، حسب تصوري، كنت لا أزال مسلماً أوروبياً من نواحٍ عديدة.

علّق حكيم: 'أَوَتظن الأمر بهذه السهولة؟! لابد لك من اجتياز سلسلة طويلة من المراحل قبل أن تصبح جاهزاً للجهاد. أولاً، سيتعين عليك أن تبرهن أنك

جدير بالله، أن تثبت أنك قد عدت إليه حقاً دون أي لبس. ثمة إخوة في أوروبا يستطيعون مساعدتك في هذا، ولكن الأمر سيستغرق وقتاً.'

لم يكن عندي سوى سؤال واحد: 'متى سنغادر؟'

غادرنا بعد شهر. جاءني حكيم يوماً؛ تذكرتا السفر كانتا معه؛ أبلغني بأننا كنا مغادرين في اليوم التالي. قبل الرحيل، عمد إلى الإجهاز على كل الآثار الدالة على حياتي القديمة، كي أتمكن من أن أولد من جديد مسلماً حقيقياً. أحرق دفتري ومعه جميع أسماء وأرقام هواتف وعناوين جميع معارفي في المغرب، جميع أولئك الذين كنتُ أبيعهم المخدرات. لم يطلعني على الأمر إلا بعد أن كان كل شيء قد انتهى. كنت شديد الغضب، غير أنني كنت عاجزاً عن قول شيء. فالقضية الجوهرية كانت متمثلة بالخروج من المغرب.

من مقعدي في الطائرة المحلقة حَدَّقْتُ عبر النافذة في المغرب وهو يبتعد أكثر فأكثر. في أعماقي، راودني نوع من الإيمان بأنني لن أعود أبداً. كنت غارقاً في بحر من النشوة.

obeikandl.com

بلجيكا

لدى نزولي من الطائرة في بروكسل، وجدتُ أخي الأصغر، نبيلاً، في انتظاري. استطعت أن أفهم من تعابير وجهه أن هناك مشكلة. قال: 'لا نعرف متى سيُطْلِق البوليس سراح حكيم.'

وجدتني غارقاً في بحر من الارتباك: حكيم كان في الطائرة معي. غير أنني، حين نظرت إلى الخلف نحو البوابة، لم أره. لم نجلس معاً لأننا كنا في حالة شجار، إلا أنني كنت قد رأيته على متن الطائرة. والآن كان نبيل يبلغني بأن البوليس السري المغربي كان قد أنزله من الطائرة في الدار البيضاء واحتجزه للتحقيق معه. تذكرت كم كان أخي صاخباً في إعلان معتقداته، لقد كنت أعتقد بأن حكومة المغرب كلها كانت طاغوتاً. لم أستغرب قط أن يكون أحدهم سمعه وأبلغ عنه. والسلطات المغربية مشغولة دوماً باعتقال الناس، أحياناً لمجرد إخراجهم من الشوارع، ولكن دائماً لدى رؤية أي دليل صغير على التطرف.

أَقَلَّني نبيل بسيارته إلى بيت أمي في أطراف بروكسل، وما إن وصلنا حتى فتحتْ لنا الباب. كنت بالغ السعادة لرؤيتها. مع أننا كنا نتحادث هاتفياً وكانت ترسل لي مبالغ نقدية إلى المغرب، فإنني لم أكن قد رأيتها شخصياً منذ أكثر من عقد. بدت أكبر سناً، ولكنها كانت لا تزال جميلة جداً. ذلك المساء، تناولنا العشاء، نحن الثلاثة معاً. كنت مسروراً جداً لأنني عدت إلى أوروبا.

بعد يومين التقيت كلاً من ياسين وأمين للمرة الأولى. كنت في مركز المدينة النهار كله، ولدى عودتي إلى البيت وجدت أخي في غرفة المعيشة مع خمسة رجال آخرين. كانت أمي قد أعدت عشاءً رائعاً للجميع وكانوا يتناولون الطعام. كان الرجال يرتدون ملابس فاخرة بدت باهظة الأثمان. وكانوا حليقي الذقون. بدا حكيم شديد الغرابة بينهم، في جلبابه وبلحيته الطويلة.

دعاني حكيم وقدمني إلى الرجال الذين كانوا جزائريين ويتكلمون الفرنسية. جميعاً كانوا شباباً صغاراً جداً، بعضهم في سن المراهقة وبعض في أوائل

العشرينيات. بدا واضحاً أن واحداً، أميناً، كان مسؤولاً. كانت بشرتُه أقل سمرة من معظم العرب، وعيناه الواسعتان بدتا جاحظتين.

كان أمين بالغَ الثقة بالنفس، واستطعت أن أرى أن الآخرين كانوا ينظرون إليه باحترام. كان يكثر من الابتسام وبالغ في التودد إليّ. قوطع باستمرار بسيل من الاتصالات عبر الهاتف الخليوي. كان نادراً جداً أن ترى أناساً مجهزين بهواتف خليوية في 1993، فاستنتجت فوراً أنه متوفر على المال.

كان ياسين أقصر من أمين ببضعة سنتيمترات، رياضياً مئة بالمئة. من الواضح أن ياسين هذا كان أقرب إلى أمين من الآخرين؛ تنحيا جانباً معظم الوقت وكانا يتحدثان بصوت منخفض كي لا يسمعهما الآخرون. في إحدى المنعطفات رأيت ياسين وهو يسلم مبلغاً من المال إلى أمين.

أمران اثنان فاجآني عن الرجلين كليهما: ثمة كانت دوائر داكنة تحت عيني كل منهما وكانا يمشيان مشية غريبة جداً. كانا بالغي الرشاقة، مثل محترفي الرقص، أو القطط. لم يكن قد سبق لي أن رأيت أحداً يمشي بهذه الطريقة. بعد زمنٍ طويل كنت سأعرف السبب.

لم أكثر من الكلام ذلك المساء. علمت أن هؤلاء كانوا منخرطين في أمر سري ربما غير شرعي، رغم أنني لم أكن متأكداً من طبيعة ذلك الأمر بدقة في تلك الليلة الأولى. علمت، بالطبع، أنه كان ذا علاقة ما بالحرب الأهلية في الجزائر. كان هذا أواخر عام 1993. فقبل عامين اثنين كانت الحكومة العسكرية قد ألغت الانتخابات حين أدركت أن جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس FIS) كانت ستفوز. وسرعان ما كانت الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA) قد انبثقت معلنة الجهاد والقتال ضد ليس الدكتاتورية العسكرية فقط بل وجبهة الإنقاذ الإسلامية أيضاً. لم تكن الجماعة تريد انتخابات جديدة؛ كانت مصرة على إقامة نظام ديني للحكم.

كان أمين وياسين يستخدمان اللغة الدينية المتعصبة نفسها التي كان أخي يتعامل بها. غير أن صوتيهما كان على الدوام هادئاً، شبه مطمئن، حتى وهما يتحدثان عن الجهاد وعن تدمير الكفار. غير أنهما بقيا أكثر الأحيان مشغولين بالكلام عن الأمور اللوجستية: عن سيارات ذاهبة من فرنسا إلى ألمانيا، ومن ألمانيا إلى فرنسا. عن نوعية السيارات التي كانت محركاتها تعاني من الخلل، وعن أمور من هذا القبيل.

لا شيء من ذلك كان مثيراً بالنسبة إليّ؛ تركتهما وأويت إلى الفراش.

جاء أمين وياسين ثانية في الأسبوع التالي. هذه المرة جلبا معهما علباً كرتونية ملأى بنسخ نشرة إعلامية وظروف. حكيم وأنا جلسنا معهما وبدأنا نملأ الظروف. كانت الظروف تحمل عناوين عائدة لأناس موزعين على العالم كله: أناس في كندا، في الولايات المتحدة، في إنجلترا، في الباكستان، في روسيا، في الصين، في فرنسا، في إسبانيا، في هولندا، في السويد، في الدانمارك، في العربية السعودية. ألقيتُ نظرة سريعة على الرسالة واستطعت أن أرى أنها كانت عن الجزائر. كان جزء منها باللغة العربية، وجزء باللغة الفرنسية.

بعد إنجاز العملية طُفنا بالسيارة وملأنا صناديق بريد المدينة كلها بالظروف. وزعناها على الصناديق. ربما كان عدد الظروف يتجاوز الألف.

بعد أسبوع آخر، جاء أمين وياسين مرة أخرى، صباحاً هذه المرة. كنت في الطابق الأرضي أتناول طعام الفطور حين سمعتهما يتحدثان مع حكيم في غرفة المعيشة. ما إن سمعت كلمة كلاشنكوف مترددة على ألسنتهم حتى انتفضَتْ أذناي؛ رحت أصغي باهتمام بالغ. كانوا يتحدثون عن الذخيرة. كانوا بحاجة إلى طلقات كلاشنكوف. كان أمين يقول: 'لا نستطيع تأمينها في بلجيكا. أما في ألمانيا، فهناك كميات كبيرة منها، غير أنها باهظة الثمن.'

انتقلت إلى غرفة الجلوس وتابعت الإصغاء. من الأساس كنت مطلعاً على جانب من موضوع الاتجار بالسلاح من الألمانيين اللذين كانا قد حاولا شراء الحشيش مقابل الأسلحة. كنت أعلم أن ألمانيا كانت مشبعة بالأسلحة الواردة من الاتحاد السوفيتي السابق. وفهمت أيضاً أن تاجر السلاح كان مَعرَّضاً لخطر الاعتقال كلما عبر حدود إحدى الدول. وكل جرعة خطر إضافية كانت تضاعف السعر. وبالتالي فإن السعر كان فاحشاً: كانوا يدفعون 13 فرنكاً ثمناً لكل طلقة.

شامّاً رائحة فُرصة سانحة للكسب، اقتحمت المناقشة قائلاً: 'قد أستطيع تأمين الذخيرة لكم. كم ستدفعون؟'

ابتسموا جميعاً، ثم ضحكوا. علق حكيم: 'لَسْتَ في القَصْر إلا من البارحة العصر. وأنت بعيد عن الأجواء منذ عشر سنوات. أنت لا تعرف شيئاً عن كل هذه الأمور وكيف تعمل.'

من المؤكد أنني كنت أعرف. كنت أبيع الحشيش على أرصفة الشوارع في المغرب. كنت أتقن فن الاهتداء إلى الزبائن، مشترين وباعة. كنت أعرف أشياء كثيرة عن البنادق والطلقات، أيضاً، من السنوات التي عشتها مع إدوار. كنت أعرف أشكالها، أثمان أجزائها. كما كنت، بالتأكيد، أعرف كيف أكسب المال. لو استطعت تأمين الخرطوش بأسعار أقل بكثير، لاستطعت اقتطاع مبلغ لي.

نظرت إليهم دون ابتسام وقلت: 'أنا جاد. أعتقد أنني أستطيع تأمين الذخيرة. ما الذي تريدونه؟' كَفُّوا عن الضحك، إلا أن الشك كان جلياً على وجوههم.

قام ياسين بكسر جليد الصمت قائلاً: 'يزيد خرطوش ايه كي - 47، 7.62 × 39 (AK-47, 7.62 × 39) ومستعدون أن ندفع عشرة ونصفاً.'

كان ما طلبوه حسماً كبيراً، وخشيت ألا يبقي لي شيء إذا قبلت بالرقم. 'لماذا عشرة ونصف؟ إذا تمكنت من العثور على الذخيرة بسعر 11 ستبقون موفِّرين فرنكين في كل طلقة.'

'لا نريد أن ندفع ذلك السعر. لا نستطيع.'

'حسناً، سأرى ما أستطيع فعله.'

لم يصدقوني، بالطبع. اكتفوا بالابتسام.

لوران

لم تكن عندي أي فكرة عن كيفية الاهتداء إلى طلقات الكلاشنكوف. وأنا أستعد للنوم تلك الليلة، تذكرت قيام حكيم بحرق دفتري وقوائم أسماء زبائني في المغرب. ليتني كنت محتفظاً بعنوان الألمانيين! لو كنت لاستطعت أن أحصل على كل ما كان أمين وياسين يريدانه، وأكثر. غير أن الحياة هي هكذا.

صباح اليوم التالي ذهبت إلى مركز المدينة، إلى شايربيك، بقعة شديدة الازدحام في بروكسل أكثرية سكانها من الأتراك والشمال أفريقيين. إنها البؤرة التي يتردد عليها الرجال بحثاً عن بائعات الهوى والمخدرات.

جلستُ في مقهى يشرف على شارع وطلبتُ مشروباً. بقيت هناك نحو ساعة على الأقل، أراقب المارة كما كنت أفعل في المغرب. مع فارق أنني كنت في المغرب أبحث عن مشترين، أما هنا فكنت أبحث عن بائع. وبسرعة لافتة اهتديت إلى واحد، إلى شاب عربي واقف على الرصيف المقابل. كان شديد الأناقة، مرتدياً بدلة رياضية جديدة تماماً من طراز نايك، دائم التلقي للاتصالات عبر هاتفه الخليوي. راقبته طويلاً. بين الحين والآخر كانت إحدى السيارات تخفف من سرعتها أمامه؛ ثم كان يمتطي دراجته النارية العملاقة من طراز كاواساكي وينطلق بسرعة فتتبعه السيارة. غير أنه كان على الدوام يعود إلى مكانه على الرصيف.

سبق لي أن رأيت هذا النوع من البشر، وقد أكد لي حَدْسي أنه كان الشخص الذي كان سيُهديني إلى ضالتي المنشودة المتمثلة بالذخائر. غير أنني

أدركت أيضاً أن هذا لم يكن من اختصاصه النظامي، وأنني إذا ما طلبت منه غرضي صراحةً فإنه كان سيرفض. من الواضح أن هذا الصبي كان يكسب الكثير من المال عبر بيع المخدرات، ولم يكن مستعداً للمخاطرة بتجارته مقابل أي شيء. تحلَّيْتُ بالحذر.

عبرت الشارع واقتربت منه. بادرته: 'السلام عليكم!'

'عليكم السلام' رد وأضاف: 'ماذا تريد؟'

أومأت إليه بأن عليه أن يتبعني. وفيما كنا سائرين جنباً إلى جنب، كنا نتطلع إلى الأمام. قلت: 'أريد أن أطرح عليك سؤالاً، إلا أنني لا أريد أن تجيبني الآن مباشرة. يكفي أن تسمعني جيداً إلى النهاية، ولكن لا تقل أي شيء.' وبعد فترة صمت، تابعت الكلام: 'أنا أبحث عن ذخيرة طلقات كلاشنكوف.'

جمد في مكانه التفتَ نحوي مرتبكاً. 'تريد أن.....'

قطعت كلامه وحدّقْتُ في عينيه، قائلاً: 'أنا جاد. لا أريد أن ترد علي الآن. فقط اسمعني وافهم ما أقوله ثم فكر به. سآتيك في وقت آخر، وإذا لم تكن مستعداً لأن تفعل ذلك فيا دار ما دَخَلَكِ شر. كل منا يسير في طريقه. أما الآن فلا أريد منك إلا أن تسمعني.'

أومأ برأسه موافقاً. تابعت كلامي: 'أنا أبحث عن خرطوش كلاشنكوف. وأنا أعرف أنك لا تبيع مثل هذه البضاعة، غير أن من المحتمل أن تكون على معرفة بشخص يفعل ذلك. أنا بحاجة إلى كميات كبيرة من الذخيرة. لن استخدمها من أجل السطو على أحد البنوك أو على أي أمكنة أخرى. إنها ستُرسل إلى خارج أوروبا كلها وبسرعة، أعدك بذلك.' ثم اندسست فيه أكثر. رحت أتكلم بأخفض صوت ممكن، هَمْساً وبلغة المتآمرين: 'إنها للأمة الإسلامية، نعم لأمة المسلمين، للجهاد.'

عيناه التمعتا للحظة، أدركتُ أنه وقع في الفخ. ثمة زبائن مثله في سائر أرجاء العالم: يشربون الخمر، يدخنون التبغ وغير التبغ، يشمون الكوكا، كفار كاملو الأوصاف في عيون المسلمين الحقيقيين. غير أنهم لدى سماعهم لكلمتي الأمة والجهاد يسارعون فوراً إلى الارتباط بالإسلام من جديد. أعتقد أن هذه الظاهرة صحيحة على نحوٍ استثنائي في أوروبا، حيث الشباب شديدو البُعد عن كل شيء، عن أرض المسلمين. ليس الجهاد بالنسبة إليهم إلا عَدَماً، إلا أمراً غير واقعي. غير أنه كل شيء في الوقت نفسه.

قلت له: 'فقط فكّر بالأمر. سأراك غداً'

عدت في اليوم التالي. كان الزبون واقفاً في المكان نفسه بالتحديد، وما إن رآني حتى ابتسم ولوح بيده محيياً. قال: 'أعتقد أنني أعرف شخصاً يستطيع مساعدتك. إنه صديق لي، أبيعه الكوك. يعرف عن الأسلحة. هل تستطيع أن تعود الليلة الساعة العاشرة؟'

عندما عدت مساءً لم أجده في المكان المعهود. انتظرتُ، وبعد بضع دقائق، جاء ممتطياً دراجته النارية. قال: 'صديقي عصبي المزاج. لا أستطيع أن أعدك بشيء. غير أن صديقاً له سيمر من هنا في غضون بضع دقائق. سيعاينك أولاً، وإذا وجدك مناسباً ونجحْتَ في الاختبار فإنه سيوصلك بصديقي'.

بعد نصف ساعة لاحظتُ سيارة متوجهة نحونا، سيارة رينو زرقاء. وقفت السيارة أمامنا. قام السائق بخفض زجاج الشباك. ذهب الزبون إلى السيارة وتحدث مع السائق بصوت منخفض.

في المقعد الخلفي كان ثمة رجل بدين متوسط العمر، أزرار قميصه فالتة، استطعت أن أرى شعر صدره مع صليب ذهبي معلق بسلسلة محيطة برقبته. رغم أنني لم أستطع أن أنظر طويلاً لأن الزبون قفز إلى السيارة وانطلقوا مبتعدين معاً.

بعد بضع دقائق عادت السيارة. قفز منها الزبون ثم انطلقت السيارة. 'آسف لما حصل' قال الصبي. 'أردت أن أعطيه شيئاً.' ثم صمت وحدّق في عيني بقوة. وأخيراً قال: 'حقاً إنه صديقي الذي حدثتك عنه. يريد لقاءك.'

سألت: 'متى. وأين؟'

'هنا. ستجدنا هنا غداً مساء.'

عندما عدت في الليلة التالية، كان الزبون ينتظرني. ثم ما لبثت السيارة، هي الأخرى، أن اقتربت. هذه المرة أومأ السائق إليّ أنا لأركب معه. صعدت إلى المقعد الخلفي وجلس السمسار (الزبون) في المقعد الأمامي.

التفت السائق إلي وقدم نفسه قائلاً: 'أنا لوران.' سألني عن طلبي وقلت له أنني بحاجة إلى خرطوش كلاشنكوف، كميات كبيرة. أومأ برأسه.

عاينْتُ الرجل. بدا برجوازياً فرنسياً أنموذجياً. لا اعتقد أنه كان فوق الخامسة والأربعين من العمر، إلا أن وجهه بدا أكبر. كان مغطى بالتجاعيد وكانت ثمة أخاديد على جبهته. عيناه كانتا دائمتي الدوران.

واصلتُ معاينتي له ونحن في الطريق. ثمة كان شيء شديد الغرابة حوله، شيء لم يكن قد سبق لي أن رأيته. كان جسمه مشدوداً تماماً، متوتراً مئة بالمئة. في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيت رجلاً على هذه الدرجة من الدقة، على هذا المستوى الرفيع من الانتباه إلى جميع التفاصيل كان دائم النظر إلى مرآته العاكسة للخلف، ولاحظت عينيه اللتين كانتا تقفزان من محجريهما لتغطيا سائر الاتجاهات.

تابعنا السير نحو عشرين دقيقة. راح لوران يتحدث مع الزبون وبقيت أنا ملتزماً الصمت في الخلف. قبل الوصول إلى أي مكان قريب من الذخائر، كنت مضطراً لدراسة هذين الزبونين واختبارهما. ربما كان لوران عميلاً للأمن، أو مُخْبراً. غير أن حَدْسي كان ينبئني بأنهما كانا من تجار الأسلحة.

تباطأتْ السيارة في منطقة صناعية في حي بروكسلي لم يسبق لي أن كنت فيه. دخل لوران إلى مرآب للسيارات، على ارتفاع عدد من الطبقات. نزلنا نحن الثلاثة من السيارة، وقفت مع الزبون (السمسار) جانباً، في حين قام لوران بفتح الصندوق. ثمة كان كيس ممدد في الداخل. سحبه لوران إلى الخارج كاشفاً عن مسدسات تشيكية رشاشة. بقيت صامتاً.

راح لوران يفسر: 'كان من المفروض أن أسلّم هذه لأحدهم، غير انه اختفى ولم يعد إلى الظهور. ليست لدي أي فكرة عن مكان وجوده.'

التفتُّ ونظرت إلى الزبون الذي بدا منبهراً بالرشاشات. انحنى وحمل أحدها مقلِّباً إياها عدداً من المرات بين يديه. تراجعت قليلاً ملتزماً الصمت.

علمت أنهما كانا يختبرانني. كانا، كلاهما، يريدان التأكد مما إذا كنت صادقاً بشأن الجهاد، بدلاً من أن أكون مجرماً صغيراً يبحث عن سلاح للسطو على أحد البنوك. وقد أراد لوران أن يعرف ما إذا كنت محترفاً، الأمر الذي جعلني أمتنع عن حمل الرشاش كما فعل الزبون. فقط الأغرار يحملون الرشاشات ويقلّبونها بتلك الطريقة تاركين بصماتهم عليها. لم تكن العملية كلها سوى مسرحية، جولة اختبار ومعاينة. كانت الأيام الثلاثة الأخيرة سلسلة متصلة من الاختبارات. من خلال مطالبتي بالعودة ثانية وثالثة ورابعة كان الزبون يمتحنني، يحاول معرفة حقيقتي. ربما كنتُ رجلَ أمن، ربما كنتُ مجنوناً. كانا يريدان أن يتأكدا من أنني لم أكن أمارس اللهو الداعر.

نظر لوران إلى المسدسات في صندوق السيارة، ثم رفع عينيه ونظر إليّ وسأل: 'هل أنت مهتم بها؟'

أجبت: 'لا، قلت لك إنني أريد ذخيرة، طلقات كلاشنكوف. لا شيء آخر. نقطة على السطر.'

أومأ برأسه عدنا إلى السيارة جميعاً وخرجنا من المرآب، وتوجهنا نحو مركز المدينة عائدين من حيث جئنا. كنت قد نجحت في الاختبار.

ذخائر

أعادني لوران بالسيارة إلى المدينة، وأنْزَلَنا تاجر المخدرات في الطريق. ثم تابعنا الدوران في الشوارع نحو ساعة من الوقت. في البداية كان الدخول في حوار صعباً. فبقينا متركزين في كلامنا عن صاحبنا تاجر المخدرات؛ لقد كان الموضوع المشترك الوحيد بيننا. تكلم عنه لوران عدداً غير قليل من الدقائق، شاكياً من تعذر الثقة به والتعويل عليه؛ أحياناً كانت الكوك معه جيدة جداً، ولكن ليس دائماً. لم يكن أي من هذا مثيراً. كان همنا الوحيد أن يعرف كل منا الآخر، أن نوجد نوعاً من الثقة.

بعد قليل بدأنا نتحدث عن الذخائر. قلت له: أنا راغب في الحصول على طلقات كلاشنكوف، ربما بضعة آلاف. لم يَبْدُ مستَغْرِباً على الإطلاق. أفاد بأنه قادر، حسب اعتقاده، على تأمينها بسعر 12 فرنكاً للطلقة الواحدة.

قلت: 'لا أستطيع دفع ذلك المبلغ. يمكنني دفع عشر فرنكات ونصف، لا أكثر.'

رد بسخرية: 'ذلك مستحيل. إنه أقل من الكلفة، كلفة التصنيع.'

عرفت أنه كان يكذب. كنت أعرف الكلفة الفعلية. ولم يكن قد انتفض حين أتيت على ذكر الكمية التي كنت أريد شراءها، فعلمت أن لديه كميات كبيرة للبيع.

بقيت مصراً. 'عشرة فرنكات ونصف. ولا مليم زيادة. إذا كان السعر لا يناسبك سأبحث عن شخص آخر.' كنت واثقاً من أنه كان سيقبل. فبلجيكا تنتج أسلحة وذخائر أكثر من أي بلد آخر في العالم ربما. كنت أعلم أن الخرطوش كان موجوداً وكنت قادراً على الاهتداء إليه. كنت استطعت اقتناص لوران في غضون ثلاثة أيام فقط، وكنت واثقاً من قدرتي على النجاح مرة أخرى.

لانَ لوران: 'قد أستطيع الحصول على البضاعة بأقل قليلاً. لابد لي من مفاتحة صديقي. قد يسمح لي بالنزول إلى أحد عشر فرنكاً وثمانين سنتيماً.'

أدركت الآن أنه كان جائعاً، أنه كان يريد إبرام الصفقة. كان بحاجة إلى زبون جديد. استطعت أن اكتشف أنه كان فَرَّخَ سمكٍ صغير إلى حدٍّ ما؛ ما من تاجر سلاح كبير كان سيركب سيارة رينو. وإذا كنت أطلب هذا العدد من الطلقات في المرة الأولى فإن من المؤكد أنني كنت سأعود طالباً المزيد.

أنا أيضاً كنت أريد إنهاء الصفقة وإنْ عَنى ذلك أنني لم أكن قادراً على تحقيق كثير من الربح. إذا نجحت في أن أصبح الوسيط بين ياسين ولوران، ربما كنت سأستطيع توظيف ذلك مع الزمن لمصلحتي.

أخيراً استقر على أحد عشر فرنكاً وخمسة وعشرين سنتيماً للخرطوشة. قلت للوران إن علي أن أثبت السعر مع معلمي. كنت عازماً على عرض الذخيرة على ياسين بسعر أحد عشر وخمسين للواحدة، وكنت واثقاً من أنه كان سيوافق. كان سيوفر فرنكاً ونصف الفرنك في كل طلقة، دون تحمل تبعات المخاطرة بعبور الحدود. وكنت أنا سأحصل على السنتيمات الخمسة والعشرين عن كل واحدة.

أنزلني لوران من السيارة عند أحد مواقف الحافلات تلك الليلة. قبل نزولي كتب رقم هاتفه الخليوي على قطعة من الورق وطلب مني أن اتصل به في غضون يومين.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي صباح اليوم التالي، وجدت أن أميناً وياسين كانا قد وصلا إلى البيت. كانا يترددان أكثر فأكثر، ربما على نحوٍ يومي الآن.

دخلت إلى غرفة الجلوس وقلت متوجهاً إلى ياسين: 'اهتديت إلى شخص. أستطيع الحصول على الطلقات بسعر أحد عشر وخمسين للواحدة.'

حاجبا ياسين ارتفعا قليلاً وهو ينظر إليَّ. التفتَ إلى أمين وتبادلا بضع كلمات هَمْساً. ثم أومأ أمين برأسه.

ببطء قال ياسين وهو ينظر إليَّ من جديد: 'موافقون. سنجرِّبه. قل لصاحبك إننا نريد خمسة آلاف. ولكن اعلمه بأننا نريد عينة قبل أن نسلم المبلغ، أي مبلغ.' بالطبع كان لدى كل من أمين وياسين قدر من الفضول؛ لم تكن عندهما أي فكرة عن ذلك الذي كنت أتعامل معه، كما لم اقترح الكشف عنه. في الوقت نفسه لم يكن ثمة ما يدعوانهما إلى الثقة بي؛ لم يكن قد مضى على وجودي في بلجيكا سوى أقل من شهر كما أن أحداً منهما لم يكن يعرف شيئاً عني.

في اليوم التالي اتصلتُ مع لوران وقلتُ له إننا موافقون على سعر الأحد عشر وخمسة وعشرين، وراغبون في الحديث عن الكمية. أضفت أننا كنا بحاجة لرؤية بعض العينات قبل التقدم أكثر. حدد مكاناً قريباً من الساحة الكبرى وطلب أن ألقاه هناك في التاسعة مساء.

ما إن ظهر حتى قفزت إلى السيارة لأجلس إلى جانبه. قلت له: 'نريد خمسة آلاف طلقة بسعر أحد عشر وخمسة وعشرين للواحدة.'

'أستطيع تأمين الكمية في يومين.' قال لوران. ثم سلمني ظرفاً. فتحت الظرف ـ كان فيه خمس طلقات. لم يكن قد سبق لي أن لمست أي ذخيرة حربية من قبل. ومع أن هذه الخرطوشات كانت مختلفة عن كل تلك الخراطيش التي صادفتها مع إدوار، فقد كنت قادراً على القول إن هذه كانت سليمة.

سألني عن المكان الذي كنا سنلتقي فيه لإجراء التبادل. اقترحت مكاناً على مسافة كيلومتر أو نحوه من بيتنا، فانتقلنا إلى هناك لأدله على البقعة بدقة. كانت على بعد نحو مئة متر من أحد مواقف الحافلات، في شارع مظلم؛ كانت المنطقة شبه مهجورة عادة في الأماسي. قام لوران بمعاينة المكان ووافق، طالباً

مني أن أتصل به خلا يومين. عندما يتأكد من تأمين الطلقات كان سيلقاني هناك منتصف الليل. نزلت من السيارة وعدت إلى البيت ماشياً.

كان ياسين بانتظاري عندما عدت إلى البيت. أعطيته الظرف ففتحه. ألقى نظرة سريعة على إحدى الطلقات، أو بدا لي أنه كان يفعل ذلك. ثم قال متحدثاً بلهجة واثقة مئة بالمئة: 'نعم هذا هو طلبنا.'

أثار ياسين إعجابي. أي شخص يلتقط طلقة كان من شأنه على الفور أن يعاين الرقم المحفور على الغلاف ليتأكد من أنها من النوعية الصحيحة. أما ياسين فقد عرف ذلك دون أن ينظر. خطر لي فجأة أن ياسين محترف.

كنت قد أتقنْتُ فن التمييز بين المحترفين والهواة حين كنت أبيع الحشيش في المغرب. ثمة أقله مئة صنف مختلف من أصناف الحشيش، إلا أن الخبراء الحقيقيين كانوا يعرفون الصنف بدقة بمجرد النظر إليه حتى دون لمسه. كانوا يقدِّرون مستوى المادة غريزياً، هل هي ذات نوعية رفيعة أم لا. أما الهواة فكانوا، قبل أن يتفوهوا بكلمة، يحملون المادة ويدحرجونها في أيديهم، يفتحون العبوة، يشمُّون المادة.

أدركت شيئاً في تلك اللحظة، شيئاً ربما كنتُ قد أحسست به من قبل ولكنني لم أكن قد فكرتُ به كثيراً في الحقيقة. أدركتُ أن أميناً وياسين كانا لاعبين جديين، وأنني كنت بصدد عملية جدية. لم يكونا يشبهان أولئك الشباب الذين كنتُ قد عرفتهم في المغرب، وكانوا يحاولون إقناعي بأنهم رجال ذوو شأن عن طريق الإكثار من الكلام عن البنادق والجهاد وادعاء السعي للالتحاق بالقتال في البوسنة. كان أمين وياسين حقيقيين.

كانت ومْضة خاطفة، سرعان ما تلاشت.

بعد يومين اتصلت بلوران واتفقنا على اللقاء تلك الليلة. كان ياسين قد أعد ظرفاً محشواً بالفرنكات. لم أعمد حتى إلى فتح الظرف أو محاولة عَدّ المبلغ؛

كنت واثقاً من أنه المبلغ كاملاً. حددت له المكان الذي سيتم فيه الاستلام والتسليم، ثم غادرت المنزل ومشيت باتجاه مكان اللقاء. انتظرتُ هناك لبضع دقائق في ظلام كامل.

ما إن وصل لوران حتى قفزت إلى سيارته، قطعنا بضع مئات من الأمتار بالسيارة ثم توقفنا في بقعة مهجورة. أخذتُ نصيبي مما في الظرف، سلمته الباقي الذي عَدَّهُ. ما إن اقتنع حتى طلب مني أن أنظر إلى ما تحت مقعدي. كان ثمة كيس من الخيش، سحبته وفتحته.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت شيئاً شبيهاً بما رأيته في تلك الليلة. حين كنت مع إدوار كان يتوفر لدينا مجرد حفنة صغيرة من الطلقات، لأننا درجنا على تكرار استخدام العناصر المكونة مرة بعد مرة. أما الآن فكانت أمامي كومة، تلة مؤلفة من آلاف الطلقات، وهي أكبر بكثير من أي من تلك التي سبق لنا أن استخدمناها إدوار وأنا. لم يكن في السيارة سوى ضوء خفيف، غير أن النحاس كان يلمع. كان المشهد مثيراً للدهشة.

لم أكن بحاجة إلى عد الطلقات. كنت واثقاً من لوران، لا لاقتناعي بأنه كان صالحاً، بل لأنني كنت أعلم أنه لن يحاول أن يخوزقني. فقد كان متأكداً من أنني كنت سأمكّنه من عقد صفقات مربحة في المستقبل.

أنزلني لوران عند موقف الباص وابتعد مسرعاً. بدأت أمشي باتجاه البيت. كان الكيس ثقيلاً جداً، ثقلاً لا يصدق. فجأة توقفت سيارة أمامي. كانت تلك سيارة الفان الفولكسفاكن العائدة لياسين. لم أكن قد توقعتُ رؤيته هناك، غير أنني لم أفاجأ في الوقت عينه. صعدتُ إلى الفان قفزاً وأبرزتُ له الكيس. فتحه ونظر إلى داخله. ابتسم ـ كانت تلك ابتسامة طويلة، عريضة.

راح يردد: "ما شاء الله! ما شاء الله!"

عند توقفنا أمام البيت، حَمَل ياسين الكيس واندفع إلى الداخل بسرعة البرق. كنت خَلْفَه، وفيما كنتُ أتقدم نحو الباب سمعت صوتاً. التفتُّ إلى الوراء فرأيت سيارة أخرى تتبعني. كان ثمة رجلان في المقعد الأمامي؛ لم أكن قد رأيت أياً منهما من قبل. غير أنهما حين رأياني خففا من السرعة وأمعنا النظر فيَّ للحظة عابرة قبل أن ينطلقا بسرعةٍ من جديد. علمت فيما بعد أن ياسين كان قد أخضعني للمتابعة والمراقبة كل الوقت.

رشاشات العوزي

صباح اليوم التالي كان أمين وياسين في غرفة الجلوس عندما نزلت لتناول طعام الفطور. كانا، كلاهما، يبتسمان. انتصب ياسين واقفاً لمصافحتي قائلاً: 'ما شاء الله يا أخ! كانا قد أحصيا الطلقات خلال الليل وكان العدد خمسة آلاف بالتمام. أدركت أنهما كانا معجبين.

رددت بابتسامة سائلاً: 'وأين هي حصتي؟'

سحابة سوداء غطت وجهيهما. رأيت أنهما كانا غاضبين. بادرني أمين: 'أنت يا أخ لا تقوم بهذا العمل مقابل مال.' كان صوته خافتاً، مشوباً بشيء من التهديد. أضاف: 'أنت تقوم بهذا العمل في سبيل الله. هذه خدمة للأمة. إياك أن تنسى هذه الحقيقة.'

رَمقْتُه بنظرة ساخرة وقلت: 'إذن، لن أقوم به بعد الآن!'

فوجئا، كلاهما، بنبرة صوتي، وتراجعا قليلاً. ثم قال ياسين: 'أرجو أن تعيد النظر بما قُلْتَه.'

أجبت: 'لست بحاجة إلى إعادة النظر. لا أستطيع أن أؤمن البضاعة لكم بهذا السعر بعد الآن على أي حال. إن التاجر أعطاني ذلك السعر للمرة الأولى فقط. من الآن وصاعداً سيكون السعر أحد عشر وثمانين.'

كنت أكذب، بالطبع، وكانا يعرفان ذلك. غير أنهما كانا ملزمين، لم يكن أمامهما أي خيار آخر. ولو بأحد عشر وثمانين كان السعر أقل بما يزيد على فرنك من السعر الذي كان متوفراً لهم من ألمانيا. وأنا لم أكن أخسر شيئاً بكذبي؛ لم يكن قد سبق لهم أن وثقوا بي تماماً على أي حال. لم أكن شبيهاً بحكيم، هادئاً، تقياً، ليّن العريكة، مطواعاً. بالطبع، لاعبتهم قدر ما استطعت. كنت أؤدي صلاة الفجر معهم وبقيت شديد الحرص على عدم إبقاء أي أثر لرائحة الكحول في نَفَسي عند عودتي إلى البيت. كنت أتحاشى مرافقتهم إلى الجامع، غير أنني كنت أقول لهم إن من شأن ظهورنا معاً أن يكون خطراً، وإنني كنت أذهب إلى مسجد آخر في مركز المدينة. لم أكن أتحدث عن الجهاد، وحين كنا، أحياناً، نتكلم في السياسة كنت أعارضهم وأتحداهم. لا أعتقد أنهم كانوا يعرفون كيف يتعاملون معي.

على امتداد الأسابيع التالية كنت سأجلب لهم ثلاث وجبات ذخيرة من لوران. في البداية لم يطلبوا إلا المزيد ن الطلقات: خمسة آلاف في كل مرة. كنت أرتب عملية الاستلام والتسليم مع لوران بالطريقة نفسها. كنت أتصل به على الخليوي وأبلغه بالرغبة في اللقاء؛ لم نناقش المطلوب على الهاتف بالمطلق. كان يحدد مكاناً للقاء وتحديد المطلوب: موقف حافلات، حديقة، غابة. كنت أتصل به بعد بضعة أيام مرة أخرى. كان ياسين يوصلني إلى مكان قريب. وما إن كنا، لوران وأنا، ننتهي من عملية التسليم والاستلام، حتى كان ياسين يسارع إلى إعادتي في سيارته إلى البيت.

وكلما التقيت لوران كان يحدِّثني عن أشياء أخرى كان يستطيع تأمينها لي. بدا متوفراً على كل شيء. باستمرار كان يعرض علي نوعاً جديداً من أنواع بواريد القناصة أو المسدسات، أشياء لم يسبق لي أن رأيتها. وباستمرار كنت أقول: لا، مؤكداً أن كل ما كنت راغباً في الحصول عليه هو الطلقات. إلا أنني كنت أحدّث

obeikandl.com

ياسين عن تلك الأشياء، وذات يوم، سحبني ياسين جانباً وقال لي: 'سَلْهُ ما إذا كان يستطيع أن يؤمن لنا رشاشات عوزي.'

بعد بضعة أيام قابلتُ لوران وسألتُه. ابتسم وقال: 'ذلك سهل. ما العدد المطلوب؟'

'لا أعرف. ما السعر؟'

يصل سعر الواحد إلى أحد عشر ألفاً من الفرنكات. حين قلت ذلك لياسين، اعترض قائلاً إنه سعر غير مناسب، أعلى من المعقول، وإنهم كانوا يريدون شراء عشر قطع ولكنهم غير قادرين على دفع السعر. صُدمت؛ لم يكن هذا ما توقعتُ سماعَه. لم يكن ثمة أي نقص في الأموال في البيت. إن سيلاً حقيقياً من المال، سيلاً متزايد الغزارة باطراد، كان يتدفق أسبوعاً بعد أسبوع. كان السيل يتدفق على البيت من جهة ويخرج منه من ناحية ثانية. كان أمين وياسين دائمي الانشغال بعد المبالغ في غرفة الجلوس أمامي. لم يكن قد سبق لي أن رأيت هذا الكم من المال في حياتي.

ومع ذلك فإن ياسين كان عنيداً. لم يكن مستعداً لدفع أحد عشر ألفاً من الفرنكات سعراً لرشاش العوزي. قال: 'انْسَ رشاشات العوزي الآن. سَلْه عما إذا كان متوفراً على مناظير ليلية.'

في لقائي التالي سألْت لوران عن المناظير الليلية. بوغت بالسؤال. 'وماذا عن رشاشات العوزي؟'

قلت له مكرراً ما سمعته من ياسين: 'انْسَ تلك. إنها باهظة السعر. لا نريد إلا مناظير ليلية.'

كنت قادراً على رؤية مدى خيبة لوران في نظراته. وعندها أدركت مغزى لعبة ياسين. على الرغم من أنه لم يكن قد قابل لوران ولو لمرة واحدة، فإن ياسين

كان يروز الأخير ويتلاعب به مثل سمكة عَلِقَتْ بالصنارة. أكد لي لوران: 'أستطيع تأمين المناظير بسعر جيد. كما قد أستطيع خفض سعر رشاشات العوزي قليلاً.'

كنا نلعب اللعبة ذاتها في كل لقاء. كنت أنا أسأل لوران عن شيء، كان ياسين يقول إن السعر أغلى مما يجب، ثم كنت أعود وأسأل عن شيء آخر. وبعد بضعة أسابيع كان السعر يهبط. كنت قادراً على شراء جميع أنواع المعدات بهذه الطريقة: المناظير الليلية، رشاشات العوزي، بواريد الكلاشنكوف، رشاشات الدراغونوف. كنت دائماً أضيف على السعر قليلاً لدى نقله إلى ياسين ولكن الأخير لم يكن يلاحظ ذلك أو لم يكن يبالي به. إن أسعار لوران كانت على الدوام أقل من أي أسعار كان ياسين يستطيع الحصول عليها عبر الحدود الألمانية. وفيما بعد كنت سأكتشف السبب: كان عند لوران زبون في أحد أكبر مصانع الأسلحة البلجيكية، زبون قادر على تأمين كل شيء كان يطلبه. كان أيضاً متوفراً على عملاء في بلدان أخرى، ولكنه لم يكن مضطراً لتنفيع عدد كبير من السماسرة مثل الآخرين.

خلال أشهر لم يطرح لوران عليّ سؤالاً واحداً. كنتُ قد اشتريت منه عشرات آلاف الطلقات وعشرات البنادق دون أي أسئلة على الإطلاق. غير أنه، ذات يوم فيما كنا جالسين في سيارته عاكفين على بحث الترتيبات، التفتَ إليَّ وسأل بهدوء:

'ما الذي تفعله بكل هذه البضاعة؟' ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، ورفع حاجبيه قائلاً: 'هل أنت عازم على شن حَرْبك الخاصة؟' لم يكن السؤال ملغوماً؛ كان يتحدث بوصفه رجل أعمال. وهو كذلك بالفعل. لم تكن لديه أي اعتراضات أخلاقية؛ أنا واثق تماماً من ذلك. لم يكن يريد أي متاعب.

طَمْأَنْتُه: 'يجب ألا تقلق. نحن لا نستخدم أياً من هذه البضائع في بلجيكا، بل وحتى في أوروبا. كل الأشياء تغادر البلاد بسرعة البرق.'

أومأ لوران برأسه وقال: 'أفهم ذلك. أتعامل كثيراً مع جبهة التحرير الوطني الكورسيكية الـ (FLNC)، كما تعلم.'

كان لوران يشير إلى جماعة مناضلين راغبين في تحرير جزيرة كورسيكا من السيطرة الفرنسية. منذ سنوات والجماعة مستمرة في شن الهجمات على سلسلة من رموز النفوذ الاستعماري الفرنسي ـ البنوك، مخافر الشرطة، الثكنات العسكرية.

من الواضح أن لوران كان يحاول التأثير فيَّ عن طريق الإتيان على ذكر الجبهة الكورسيكية، إلا أنني كنت أيضاً متأكداً من أنه كان صادقاً.

كنت أعرف طبيعة ما كنت أقوم به من عمل، ولم يكن ذلك يقلقني. لم يكن ما أنا بصدده سوى عمل. كنت أكسب مبالغ جيدة، وكان العمل مثيراً. بالطبع كنت أعرف المكان الذي تتوجه إليه كل هذه الأسلحة. كانت تذهب، بأكثريتها، إلى الجزائر، وبعضها إلى أمكنة أخرى أيضاً. كانت المسألة بسيطة. مع توالي الأسابيع، كانت أعداد أكبر من الناس تمر بالبيت. الجميع شباب، صغار السن. جماعات تأتي وأخرى تذهب في سيارات ـ هذه تركن سيارة وتلك تأخذ أخرى. أحياناً كانوا يبقون معنا ليلة أو اثنتين، ثم لا أرى أي أثر لهم مرة أخرى.

مع مرور الوقت، تزايَدَتْ أعداد المارين بالبيت قبل التوجه إلى بلاد الشيشان. كنت أغار من هؤلاء. كنت قد بدأت أُكْثر من قراءة الجرائد لأننا لم نكن نملك تلفزيوناً في البيت. كنت أمضي ساعات طويلة في الفناك (Fnac)، الذي هو دكان إعلامي في ساحة روجيه بمركز المدينة. كنت أستطيع أن أجلس على الأرض وأقرأ ما شئت. هناك اطلعت على سلسلة تقارير عن الحرب الأهلية في بلاد الشيشان.

سلفاً كنت أعرف أشياء معينة عن الحرب؛ كنت قد سمعت نُتَفاً عنها خلال أشهري القليلة الأخيرة في المغرب. كنت أعرف، على نحوٍ خاص، عن جَوْهَر

دوداييف، ذلك الذي كان يتولى قيادة المتمردين الشيشان ضد الاتحاد السوفييتي. كان بطلاً بنظري؛ سبق له أن كان طياراً مقاتلاً عظيماً. كانت روسيا تحاول إزاحته، بل قَتْله. كان الروس مصممين على سحق المسلمين الشيشان تماماً كما سبق لهم أن حاولوا أن يسحقوا مسلمي أفغانستان.

كان أمين وياسين يُكْثران من الكلام عن بلاد الشيشان، وعن الجهاد في طول العالم وعرضه. بالطبع تركز جُلُّ كلامهما على الجزائر. كانا يريدان الإطاحة بالنظام العسكري، بالطبع. غير أنهما كانا تواقين إلى استئصال جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس FIS) من جذورها، لأن الأخيرة كانت تسعى إلى إيجاد حل سياسي لمشكلات الجزائر. لم تكن السياسة بنظر أمين وياسين إلا طاغوتاً. كان الإسلام هو القانون الصحيح الوحيد.

كانا يتحدثان عن البوسنة أيضاً. كنت شديد اللهفة لسماع أخبار البوسنة لأنني كنت قد قرأتُ أشياء كثيرة جداً عنها وحلمت بالذهاب إلى هناك. وبالتالي كنت شديد الانزعاج من تعبير أمين وياسين عن سخطهما على البوشناق، مع أن رجالاً كانوا لا يزالون يأتون إلى البيت تمهيداً للذهاب إلى القتال معهم. أحياناً كنت أتساءل عما إذا كان قد سبق لأمين وياسين أن كانا هناك، لأنهما كانا يتحدثان على نحوٍ مباشر جداً عما كان جارياً هناك. على الدوام كانا يتكلمان عن أن البوشناق لم يكونوا مسلمين حقيقيين. دأبا على قول إن النساء كُنَّ يكشفن رؤوسهن، والرجال لا يذهبون إلى المساجد. كان هؤلاء البوشناق يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير. بل وكان بعض البوشناق قد حاولوا قتل الإخوة العرب الذين جاؤوا لمساعدتهم في حربهم الجهادية ضد الصرب.

لم أستطع أن أفهم هذا كله. كنت على الدوام مقتنعاً بأن البوسنة طاهرة ومقدسة. أما الآن فلم أعد واثقاً.

كان أمين وياسين يتحدثان عن أفغانستان أيضاً. مرة أخرى فاجآني. سرعان ما علمت أن حكمتيار كان بطلاً عظيماً بنظرهما، تماماً كما كان بنظر حكيم. غير أنهما كانا يحقدان على الطالبان. كنت أعرف أشياء قليلة عن الطالبان لأنني كنت قد تابعت تقارير عنهم عبر التلفزيون، كما كنت قد قرأت عنهم في الفناك (Fnac). كانوا متطرفين في تقواهم وولائهم للدين، وقَدَّرْتُ أن أميناً وياسين كانا سيسارعان إلى تبني مواقفهم وإلى التعامل معهم كما يتعاملون مع حكمتيار. غير أنهما بقيا مصرين على موقفهما زاعمين أن الطالبان كانوا أهل بدعة، متطرفين، لا مسلمين حقيقيين. كانوا شديدي التعصب والتشدد في أسلوب معاقبتهم للناس، بعيدين عن اتباع شريعة الإسلام الحقيقية الصحيحة.

كان أمين وياسين يعرفان أشياء كثيرة عن أفغانستان لأنهما كانا في معسكرات التدريب هناك. ومع أنهما كانا شديدي التكتم حول الأمر، فإنني علمت بالأمر بما يشبه الصدفة حين كانا يمزحان على مائدة العشاء ذات مساء. كنا جميعاً قد تناولنا عشاء دسماً، وبعد الانتهاء من تناول الطعام كان ياسين قد اضطجع إلى الخلف على كرسيه واضعاً يديه على بطنه.

قال موجهاً كلامه إلى أمين: 'سامحنا الله؛ إننا، كلينا، نزيد وزناً.'

ابتسم أمين ثم ضحك وقال خَطْفاً: 'نعم، كنا، كلانا، ناحلين جداً في المعسكر'. ثم اضطجع هو أيضاً واضعاً يديه على 'كرشه' الصغير للدلالة على السمنة التي كان قد اكتسبها منذ ذلك التاريخ، وراح ياسين وحكيم يضحكان أيضاً.

وما إن هدأ الضحك حتى تابع أمين الكلام: 'ليس سهلاً أن يبقى المرء ملتزماً بطريق الله حين يكون مقيماً بين الكفار. إننا نبالغ في الإكثار من الطعام، لا نمارس الرياضة. يتسلل الضعف والوهن إلى أجسادنا.'

بدا الحوار غريباً بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. فأمين وياسين كانا، كلاهما، رشيقين جداً. كانا يؤديان الصلاة، فرضاً وسنة، كل يوم. بنظري أنا، كانا يبدوان منضبطين على نحوٍ غير قابل للتصديق. لم أكن مثلهم من قريب أو بعيد. غير أنني كنت أتذكر ما كان أخي قد قاله لي في المغرب حول ضرورة اجتياز مراحل عديدة واختبارات كثيرة قبل الوصول إلى مستوى الجاهزية المطلوبة للجهاد.

كنت متأكداً من أن حكيماً، أيضاً، كان يريد أن يتحلى بتلك الصفة، صفة الانضباط، غير أنه كان يسعى إلى المطلوب بأسلوب خطأ. بالمقارنة مع أمين وياسين كان يبدو صغيراً إلى حدٍّ ما، أقرب إلى السُّخْف والتفاهة بمسواكه وجلبابه. كنت قد بدأت أدرك أن هذا كان هو رأي أمين وياسين أيضاً. كانا يلاطفانه دائماً، وسعيدان بوجوده قريباً منهما. إلا أنني استطعت أن أرى أنهما لم يكونا يكنان له أي احترام. بالطبع، لم أبادر قط إلى مفاتحة حكيم حول كل هذا. في الحقيقة لم أكن أتحدث معه في أي موضوعات جدية.

من المؤكد مئة بالمئة أنني لم أكن مثل أمين وياسين. لم أكن أؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم. كنت أشرب وأدخن - سراً بالطبع، لأنني لم أكن قادراً على كشف أوراقي أمامهما. كذلك لم أكن أرى العالم، مثلهما، مقسوماً بين أتقياء مؤمنين من ناحية وكفار مُلْحدين من الناحية المقابلة، إضافةً إلى أن خطابهم العنيف كان يزعجني. إلا أنني كنت معجباً بتجربتهما، بانضباطهما، بنار حب الله المتقدة في قلبيهما. كان ذلك هو ربي أنا أيضاً.

شيء واحد فقط كان يضايقني في مهنتي الجديدة: رشاشات العوزي. كنت حزيناً جداً وأنا أصغي إليهم جميعاً - حكيم، ياسين وأمين - مثرثرين حول الأمة والجهاد مع عدم ترددهم في إنفاق آلاف الفرنكات على شراء الرشاشات الإسرائيلية والطلقات الروسية.

لعل هذه هي مشكلة الإسلام الحديث مكثَّفَةً. نحن معتمدون كلياً على الغرب - في جَلاّياتنا، في ملابسنا، في سياراتنا، في تعليمنا، في كل شيء. إنه لأمر مهين؛ إنه ذل يشعر به كل مسلم. ما من مرة تذكرتُ فيها رشاشات العوزي إلا وشعرتُ بالمهانة. مع أنني كنت ساخطاً على أمين وياسين بسبب نفاقهما، فإنني وجدتُ نفسي أشد استياءً من مجمل العالم الإسلامي. في الأزمان الغابرة كنا قد أنجزنا أشياء كثيرة - على أصعدة العلوم، الرياضيات، الطب، الفلسفة. كنا أصحاب الحضارة الأكثر تطوراً في العالم. أما الآن فنحن متخلفون. إننا عاجزون حتى عن خوض حروبنا ما لم تتوفر لنا أسلحة أعدائنا.

طارق

بعد انقضاء نحو أربعة أشهر على وصولي إلى بروكسل، انقلبت حياتي رأساً على عقب. لدى عودتي عصر أحد الأيام وجدتُ المطبخ محشواً بحشد من العلب والصناديق والأمتعة. لم أفهم ما كان يجري، انسحبتُ بسرعة صاعداً إلى غرفة نومي. ثمة كانت آلة تصوير فوتوكوبي كبيرة من طراز كانون في الممر، لم أكن قد رأيتها من قبل. وداخل غرفة نومي وجدت المزيد من الأغراض والعلب المبعثرة هنا وهناك.

هرعت عائداً إلى الطابق الأرضي حيث رأيت أمي وسألتها: 'ما الذي يجري يا ماما؟ ما معنى هذه الأشياء؟'

'بعض أصدقاء حكيم آتون ليعيشوا معنا بعض الوقت. إنهم أمين، ياسين، وآخرين أيضاً. فَقَدوا شقَّتَهم وباتوا بحاجة إلى مكان للإقامة.'

لم أستطع تصديق ما سمعته. غير أنني كنت عاجزاً عن فعل شيء؛ كان البيت بيت أمي. اندفعت خارجاً، وصفعت الباب ورائي بقوة.

لدى عودتي إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم، وجدت حكيماً مع كل من ياسين وأمين ورجلين آخرين. كان الجميع مشغولين بتناول طعام العشاء. جلستُ مع الجماعة وقدم حكيم الشخصين الجديدين قائلاً: 'طارق وكمال.'

كان طارق الأشد إثارة بين المجموعة؛ لم يكن فيه شيء يشبه الآخرين. من الجلي أنه كان الأكثر رُقيّاً - أنيق، أوروبي، وأكبر سناً قليلاً. ربما في أواخر عشرينيات عمره. إذا تكلم كان الجميع يصغون باحترام. كان صاحب كاريزما طاغية سيطرت على الغرفة كلها. أما كمال فكان أكثر هدوءاً بما لا يقاس. نادراً ما كان يتكلم، غير أنه إذا فعل كنتُ أجد لغته الفرنسية بالغة العذوبة. إلا أنه لم يكن يتكلم العربية - أدركت هذا مباشرة من طريقته في نطق عبارة 'سلامو أليكم' عندما صافحني للمرة الأولى.

لم أقل شيئاً تقريباً خلال الوجبة، وغادرت فور الانتهاء من تناول الطعام. صعدت إلى غرفة نومي وتمددت في سريري. ما لبث الآخرون أن تسلقوا الدرج؛ فتح طارق الباب ودخل. حين انحنى وراح يبحث عن شيء في إحدى الحقائب، أدركت أنه كان شريكي الجديد في الغرفة. أغمضت عيني وتظاهرت بالنوم. ما لبثت أن غَفَوتُ. أخذني النوم.

استيقظت بعد نحو ساعتين. سمعت ضجيجاً في الغرفة. حين فتحت عيني، رأيت طارقاً عاكفاً على قراءة القرآن في ضوء مصباح الجيب وهو يصلي. تأوَّهْتُ وانقَلَبْتُ لأواجه الجدار. أيقظني ثانية قبل الفجر حين أدى صلاة الفجر.

تكرر المشهد نفسه ليلياً بعد ذلك؛ لم أعد قادراً على النوم سوى ساعات قليلة. أحياناً كان ياسين وأمين ينامان في غرفتي أيضاً، والثلاثة، جميعهم، كانوا يستيقظون منتصف الليل للقراءة والصلاة.

تعبت كثيراً. كنت ساخطاً شديد الغضب.

obeikandl.com

في ساعات النهار كان طارق وكمال سيستخدمان غرفة نومي مكتباً. ومعظم الوقت كان طارق يبقى هنا مشغولاً بكمبيوتره المحمول. ثمة كان جهاز فاكس على قاعدته، وكانت رسائل فاكس تصل كل ساعة. أحد الرجلين كان يبقى واقفاً باستمرار بجانب الجهاز لحظة وصول الرسائل، فلم أتمكن قط من رؤية طبيعتها أو هوية مرسليها. تأكيدات التحويل كانت تترك مرمية هنا وهناك مما مكّنني من معرفة مصادر الفاكسات. أسبوعياً، إما الأربعاء أو الخميس، كانت رسالة فاكس تصل من لندن أو السويد، أو من فرنسا أحياناً. درج طارق، أمين، وياسين على ترقب هذا الفاكس الأخير باستمرار، وعلى الحديث عن شخص اسمه إلياس موجود في الخارج. لم تكن لدي أي فكرة عن هويته. من جملة تعليقات صادرة عن آخرين، شكلت سلسلة من الملاحظات عن أنواع مختلفة من الأشياء: كان إلياس قد عاش في فرنسا، قد عاش في السويد، قد تزوج امرأة أوروبية. كنت أعرف شيئاً واحداً مؤكداً: كان إلياس يعيش الآن في لندن.

لدى توقعه وصول فاكس من إلياس كان طارق يحرص على ملازمة الجهاز على نحوٍ دائم. ذات يوم أنا أيضاً لازمت الجهاز، ثم تبعته إلى داخل غرفة النوم بعد أخذ الفاكس من الجهاز. سألته متظاهراً بحب الاستطلاع البريء: "ماذا تفعل؟"

رفع رأسه بسرعة؛ من الواضح أنه كان على عجلة من أمره. قال: "أُنْهي الأنصار."

بالطبع كنت على علم بالأنصار. كنت قد حشوت الظروف بها أسبوعياً منذ وصولي إلى بلجيكا. كنت اعلم أنها النشرة الإعلامية الصادرة عن الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA)، وأن النسخ التي كنا نرسلها كانت تذهب إلى عناوين في طول العالم وعرضه. وكل نسخة كنا نرسلها كانت ستُصوَّر بجهاز الفوتوكوبي مئات بل آلاف المرات لتوزيعها في المساجد. وكنت أيضاً أقرأ المزيد

عن نشرة الأنصار في الصحف المتوافرة في الفناك Fnac. كنت أعرف من اللوموند والفيغارو أن السلطات كانت تعدها نشرة إرهابية، وأن البوليس كان يحاول الاهتداء إلى مصدريها.

ومن نشرة الأنصار هذه اطّلعت على المزيد من الأخبار عما كان يحدث في الجزائر - فأنباء الحرب الأهلية كانت تأتي مباشرة من خط الجبهة. كثيراً ما كان اللحاق بالأحداث يتطلب أسبوعاً أو اثنين من الجرائد الأوروبية. كانت الجماعة تعدم عناصر الشرطة والمعلمين ولاسيما أعضاء الجماعات المنافسة في المعارضة. كانت تستهدف المدنيين أيضاً؛ كل من لم يكن مستعداً لتبني نظرتها الإسلامية. كذلك كان الإعلاميون، رجال الفكر، المثقفون وجميع الأجانب أهدافاً مشروعة... والقائمة تطول وتطول.

تركزت مهمة طارق، كما علمت، على تجميع سائر الفاكسات الواردة من لندن والسويد، وترجمة كل المواد من الفرنسية إلى العربية، ومن العربية إلى الفرنسية. فالأنصار كانت تصدر بالاثنتين. وقد كان مكلفاً بإضافة تعليقاته الخاصة أيضاً. وكمال كان حاضراً كل الوقت لمساعدته وكان استثنائي المهارة في الترجمة إلى الفرنسية. كان لدى طارق خاتماً يطبع به النسخة الأخيرة قبل البدء بتصويرها على جهاز الفوتوكوبي. كان الخاتم صورة لرشاشَيْ كلاشنكوف متصالبين، مع سيف وقرآن.

أحياناً كان طارق يتحدث عما يكتبه أو يفكر به عن الجماعة الإسلامية المسلحة في الجزائر. كان دائباً على انتقاد فرنسا لتأييدها الحكومة في الجزائر. بدا مقتنعاً بأن الفرنسيين كانوا هم المسؤولين عن الحرب الأهلية، بأنهم كانوا يلعبون لعبة سياسية في البلد بغية الحفاظ على مصالحهم النفطية. كنت أخالفه الرأي. سألته يوماً: 'ألا تعتقد أن الجزائريين أنفسهم مسؤولون ولو جزئياً؟'

كانت تلك صدمة حقيقية، وسألني عما عنيته. ذكَّرته بأن الجزائر كانت هي الأخرى قد سَعَتْ إلى إقامة علاقة دافئة مع فرنسا. فبعد بضعة أشهر من إعلان استقلال الجزائر عن فرنسا كان بن بلا، أو رئيس جمهورية جزائري، قد أبرم صفقة أتاحت للفرنسيين فرصة متابعة تجاربهم النووية على الأرض الجزائرية - شرط إبقاء الموضوع طي الكتمان. ومع أنني لم أكاشف طارقاً بصراحة، فإن الفضيحة الحقيقية تمثلت، حسب رأيي، لا بالطريقة المعتمدة من قبل الحكومات الغربية لاستغلال العالم العربي، بل بإذعان هذا العالم الإسلامي لتلك الطريقة.

لم يكن طارق مستعداً لسماع ما كنت أقوله، وكنت واثقاً من أنني كنت عاجزاً عن إقناعه بأي شيء. كنت ساخطاً. طرحتُ أخيراً السؤال التالي: 'إذا كانت فرنسا هي المشكلة، فلماذا لا تبادر الجماعة الإسلامية المسلحة إلى قتل الفرنسيين، بدلاً من الجزائريين؟'

رد دون انتظار: 'لم يحن الوقت بعد. غير أن ذلك سيحصل.'

في هذه الأثناء واصلتُ شراء الأسلحة من لوران. ذات يوم، جلبتُ معي كيس طلقات بعد إحدى عمليات التبادل. بعد وصولي إلى البيت طلب مني ياسين أن أضع الطلقات على السقيفة. توجست؛ لم أكن أبالي بشراء الذخيرة، غير أنني لم أكن راغباً في بقائها في البيت. غير أنني لم أعترض؛ وافقت على وضع الذخيرة في المكان المحدد.

حين أويت إلى غرفة نومي أنزلت السلم المفضي إلى السقيفة الواطئة ودسست نفسي في المكان مع كيس الطلقات. انتظرت بضع ثواني إلى أن تطابقت عيناي مع الظلام، وما إن فعلتا حتى صُدمتُ بما رأيت. ثمة كان أسلحة في كل مكان: بواريد قنص، كلاشنكوف، رشاشات عوزي، أكياس كثيرة من الذخائر. أشياء تذكرتها لأنني كنت قد اشتريتها من لوران؛ أشياء أخرى لم يكن قد سبق

لي أن رأيتها من قبل. كانت السقيفة ملأى إلى فمها ـ ثمة كانت أسلحة تكفي لتسليح جيش صغير.

حين نزلت عن السلم، أُصبت بالدوار. لم يكن قد خطر لي أنهم كانوا يخزِّنون الأسلحة هنا في البيت. كنت قد قدَّرت أن ياسين كان يعيدها إلى أي مكان آمن كان هو وأمين يقيمان فيه. راودني الشك في أن يكون حتى حكيم عارفاً بما كان يحصل. فهو لم يكن أقل مني تعلقاً بأمنا، ولا أظن أنه كان مستعداً لأن يعرِّضَها لمثل هذا الخطر. لم أستطع أن أصدِّق أنني كنت أنا بالذات قد عَرَّضتها لمثل هذا الخطر.

بات واضحاً أكثر فأكثر أن كلاً من طارق، كمال، أمين، وياسين كانوا يلعبون لعبة بالغة الخطر. أصبحت راغباً في إبعادهم عن البيت.

الأمور كلها كانت متسارعة. راح ياسين يطلب مدافع أكبر، كميات أوفر. أعداد متزايدة من العناصر الشابة كانت تمر ببيتنا في طريقهم إلى الجبهات. كثيراً ما كانوا يملؤون سياراتهم بأسلحة من السقيفة. المزيد من السيارات كانت تأتي وتذهب كل يوم.

مع أن أخي نبيل كان أقل مني بما لا يقاس اطلاعاً على ما كان يجري، فقد أحس هو الآخر بقدرٍ من القلق والارتياب. ذات يوم جاءني نبيل فيما كان الآخرون في الجامع. كان أكثر سخطاً مني. سألني: 'ما الذي يجري؟ هل تظن أن هذا آمن؟ ماذا لو جاءت الشرطة؟ إنها ستعتقلنا جميعاً. إنها ستعتقل ماما.'

حدثني عن أن لديه خطة. كان سيلقي بجهاز الفوتوكوبي إلى الأرض من طابق غرف النوم لتحطيمه لدفعهم إلى الرحيل. كان نبيل عملاقاً، وكان مستعداً ليكون عنيفاً جداً. خشيت فعلاً من أن يُقْدم على فعل ما قال إنه كان سيفعله.

قلت له: 'لا تكن سخيفاً. لن يفضي ذلك إلى أي نتيجة. سيؤدي فقط إلى استثارة غيظهم.'

'ما الذي سنفعله، إذن؟'

كان عقلي قد بدأ يعمل بسرعة. كان نبيل أخي الأصغر، وكان من مسؤولياتي أن اهتم به وبأمي وأن أرعاهما. وَعَدْتُه: 'سأتدبر الأمر.'

القنصلية

بالفعل لم أكن متوفراً على أي فكرة عما كنت سأفعله. لم أكن أعرف كيف كنت سأتمكن من إخراج طارق والآخرين من البيت. تملكني الغضب؛ أحسست بأنني واقع في مصيدة. شعرت كما لو كنت أتبخر، أطلق سحابات من البخار. وهكذا وجدتني مُقْدماً على فعل أغبى شيء فعلته في حياتي.

صباح اليوم الذي أعقب اليوم الذي تحدثت فيه مع نبيل بقيت في الفراش عند نهوض الآخرين للذهاب إلى الجامع. تمارضت. بعد خروجهم قفزت من فراشي وفتحت حقيبة طارق. وجدت فيها جواز سفر وصورة امرأة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، وأكواماً من الأوراق النقدية من سائر العملات المختلفة.

لم آخذ المبالغ النقدية كلها، اكتفيت بجزء بسيط: بخمسة وعشرين ألفاً من الفرنكات فقط. تصورت أن من شأن أخذ شيء من الحقيبة أن يُفْهِم طارقاً بأن البيت لم يعد آمناً فيقرر الرحيل مع كل من أمين وياسين. غير أنني كنت شديد الرغبة في النيل منه. لم يكن هو، ومعه الآخرون، قادرين، حسب قناعتي، على إيذائي في الحقيقة ـ كانوا بحاجة إليَّ لتأمين الأسلحة. كنت مزهواً.

أمضيت الليل كله بعيداً عن البيت. كان في جيبي آلاف الفرنكات وكنت سعيداً ببقائي بعيداً عنهم. بدأت السهرة بعشاء طويل باهظ التكاليف في مطعم

في الغراند بلاس (الساحة الكبرى) ولم تنته حتى صباح اليوم التالي. حين اقتربت من البيت عائداً وجدت نبيلاً ينتظرني خارج المنزل.

بادرني: 'إياك أن تدخل' وانقض على ذراعي بقوة ورحنا نمشي في الاتجاه المعاكس.

أضاف نبيل: 'يريدون قتلك. عرفوا أنك أخذت الأموال وكانوا يتحدثون عن طريقة القتل.'

دُهشت: 'يقتلونني أنا؟ هم يريدون قتلي؟ قالوا هذا أمامك أنت؟'

'نعم، بالطبع. هذا هو ما يتعين عليهم فعله. أنت الآن طاغوت. لست إلا عدواً للمجاهدين. يتوجب عليهم قتلُك. إنها الشريعة.'

'وحكيم متفق معهم في هذا؟'

'بالطبع، كلهم متفقون في هذا الرأي.'

تسارع تفكيري؛ لم أكن قد توقعت هذا. كنت أخدمُهم منذ أشهر، أحشو ظروفهم وأزودهم بالبنادق لتسليح جنودهم. فجأة أصبحت طاغوتاً، عدواً للمجاهدين لمجرد سَطْوي على خمسة وعشرين ألفاً من الفرنكات؟ غدوت حتى أكثر غضباً وسخطاً من ذي قبل. وكان غضبي من حكيم استثنائياً لموافقته على هذا تحت سقف بيت أمي.

هذه المرة، عرفْتُ فوراً ما تعين علي فعله. شعرت بالأمر في أحشائي. حَدَّقْت في عيني نبيل وقلت: 'أريد منك خدمة يا نبيل.' أومأ تعبيراً عن استعداده للخدمة.

'أريدك أن تبقى في البيت النهار كله يوم غد. إذا لم أتصل بك مع حلول الظهر، أريدك أن تصعد إلى السقيفة. ثمة رشاشات كلاشنكوف هناك مع كيس

ذخيرة جرى اقتطاعهما من الشحنة الأخيرة. أعتقد أن تلك الأشياء هي الباقية. إذا لم أكن قد اتصلت فإنني أريدك أن تضعها في كيس. لابد لك من حمل الكيس إلى القناة ورميه فيها. هل تفهمني؟' بدا نبيل خائفاً. 'نعم. أفهمك. ولكن ما الذي ستفعله؟' سألني.

قلت له: 'لا أستطيع أن أخبرك. سيكون من الأفضل ألا تكون عارفاً بما سأفعله.'

أمضيت تلك الليلة في البيت. لم يقل أحد كلمة واحدة عن الأموال في أثناء العشاء، وأنا أويت إلى الفراش في الموعد المألوف. غير أن النوم لم يعرف طريقاً إلى عيني؛ كان كلٌّ من طارق، أمين، وياسين نائمين في غرفتي ولم أكن مطمئناً إلى ما كان يمكن أن يفعلوه.

في الفضاء الغريب الفاصل بين اليقظة والنوم، رأيت حلماً مفعماً بالحيوية أتذكره حتى اللحظة كما لو كان البارحة. كنت في الجبال مع حكيم، ماشيين في أحد الأودية. كان يرتدي جلباباً أبيض، وقد بدا مضيئاً تقريباً بين الصخور الداكنة. كنت أنا مرتدياً ملابسي العادية - سروال الجينز الأزرق وبوط الرياضة - وكنت أشكو. توسَّلْتُ قائلاً:

'هل نستطيع أن نتوقف هنا؟ أنا متعب. هل نستطيع أن نتوقف هنا؟' رد حكيم:

'لا، أيا أخ. لم نصل بعد.'

صباح اليوم التالي نهضت مبكراً جداً وغادرت البيت. صَمَّمْت على الذهاب إلى القنصلية الفرنسية. كنت أعلم أن الشرطة البلجيكية لن تساعدني؛ لم أكن في نظرهم سوى إرهابي لا مكان له إلا السجن. غير أن الفرنسيين كانوا أكثر اهتماماً بالجماعة الإسلامية المسلحة لأنهم كانوا يعرفون بأنهم مستهدفون.

وجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي المعروف بالدي جي اس إي DGSE كان معروفاً بالقسوة التي لا تعرف معنى الرحمة. قبل بضع سنوات كان عملاء الجهاز قد نسفوا سفينة السلام الأخضر، المناضلة قوس قزح، بالقرب من شواطئ نيوزيلاندا لتمكين الفرنسيين من متابعة تجاربهم النووية في القطاع الجنوبي من المحيط الهادي. كنت واثقاً من أن هذا الجهاز لن يُقْدم على تلويث يديه بشخص مثلي.

ما كنت لأستطيع أن أطمئن لأي شيء، بالطبع. كان من المحتمل أن أتعرض للاعتقال والإيداع في السجن. ذلك هو السبب الذي جعلني أطلب من نبيل إبعاد الأسلحة. إذا أقدم الفرنسيون على مداهمة البيت، كنت أريد أن أطمئن إلى أنهم لن يجدوا شيئاً. لم أكن أريد تعريض أمي ونبيل لأي متاعب جنباً إلى جنب مع الآخرين.

ركبت حافلة الترام المتجهة إلى مركز المدينة، ثم مشيت باتجاه مبنى القنصلية. أحشائي كانت تؤكد لي أن هذا كان هو التصرف السليم الوحيد. ومع ذلك كنت أحس بالانسحاق تحت ثقل الشعور بالذنب. تذكرتُ حكيماً، تذكرت كيف كان وأنا طفل يعطيني القطع النقدية والحلوى. تذكرت رشاشات العوزي. فكّرتُ بالمليار والست مئة ألف من المسلمين في طول العالم وعرضه، بهؤلاء الذين يتعرضون للإذلال نتيجة إخفاق العالم الإسلامي وغطرسة الغرب. فكَّرتُ بهذه الأمور كلها لأنني كنت أحس بها في أعماقي، وكنت أعلم أن كلاً من حكيم، أمين، ياسين وطارق كانوا جميعاً يحسون بها في أعماقهم أيضاً. غير أنني كنت مضطراً لحماية عائلتي ونفسي، ولم يكن لدي أي خيارات أخرى.

حين وصلت إلى القنصلية، وقفت على الدرجات ورحت أحدق في الباب؛ دام ذلك أكثر من دقيقة. كنت في نوع من حالة الذهول والنشوة. كنت أعلم أن من شأن دخولي أن يؤدي إلى قَلْب حياتي رأساً على عقب وإلى الأبد. تزاحمت

الصور في رأسي: صور طارق والبواريد ولوران وأمي وأمين وياسين وحكيم بجلبابه الأبيض الناصع ونبيل والطلقات والمجاهدين في أفغانستان والمدنيين في الجزائر. شعرت بنوع من الانقباض في صدري واغرورقتْ عيناي بالدموع فيما كانت الصور تدور وتدور.

ومن ثم، في لحظة سقط كل شيء، أصبح ذهني صافياً تماماً. فتحتُ الباب ودخلت.

جيل

في الداخل، وقفت أمام مكتب الاستقبال. قلت للفتاة الجالسة خلف الطاولة: 'أريد مقابلة أحد المسؤولين عن حدود فرنسا وأمنها.'

سَأَلَتْ: 'حول أي موضوع؟'

قلت: 'أخشى ألا أكون قادراً على إخبارك أنت. أريد أن أرى شخصاً مسؤولاً عن حدود فرنسا وأمنها. لدي معلومات. هل عندك شخص تنطبق عليه هذه الصفة، أم علي أن أرحل؟'

راحت تتمتم: 'لا، أرجوك. اجلس من فضلك. سأعود بعد دقيقة.'

بعد بضع دقائق ظهر رجل بدا أنيقاً. من الواضح أن بذته غالية الثمن.'طَلَبْتَ رؤيتي يا سيد؟'

أومأتُ.

'اتبعني من فضلك.'

قادني إلى مكتب واسع ودعاني إلى الجلوس على الأريكة. واصلتُ الوقوف. بدا مستغرباً قليلاً، إلا أنه كرر دعوته بعد ذلك قائلاً: 'اجلس من فضلك. وما الذي أردتَ قوله لي؟'

obeikandl.com

أجبت بحزم: 'لست بصدد رواية قصتي. يطيب لي أن أكلم أحداً يكون منخرطاً انخراطاً مباشراً في الحرب على الجماعة الإسلامية المسلحة. لدي معلومات ستكون ذات أهمية كبيرة، ولكنني أريد أن أتحدث مع شخص يكون على خط الجبهة.'

من الواضح أنه فوجئ وراوده شيء من الغضب. من المؤكد أنه لم يكن متوقعاً شخصاً مثلي يملي عليه شروطاً، أيشروط. إلا أنه ما لبث أن لان ورضخ. 'اذهب من فضلك واجلس هناك في غرفة الانتظار. سأكون معك في غضون بضع دقائق.'

غادرت المكتب وجلست في الخارج. بعد عشر دقائق فتح الباب ودعاني إلى المكتب ثانية. قال 'هل تستطيع أن تعود غداً صباحاً في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً؟ إذا لم يكن ذلك ممكناً فقل لي مباشرةً.'

وافقت على العرض قائلاً: 'موافق. أستطيع أن كون هنا غداً.'

'جيد. حين تصل إلى هنا، بادر من فضلك إلى الجلوس في غرفة الانتظار. ثمة شخص سيقترب منك وسيزودك بالتوجيهات. ثم ستتبعه. يمكنني أن أؤكد لك أنه على علاقة مباشرة بالمعركة ضد الجماعة الإسلامية المسلحة.'

وافقت على الخطة ثم غادرتُ القنصلية. ما إن أصبحت خارج المبنى حتى وجدتُني أمام كشك للهاتف فاتصلت بأخي وقلت له: 'لا تبادر إلى أي حركة. اترك كل شيء في مكانه الآن.'

أمضيت الليل في البيت مرةً ثانية. كنت قد استجمعت أفكاري، وأدركت استحالة إقدامهم على قتلي في بيت أمي. كانوا بحاجة ماسة إلى البيت: لتخزين الأسلحة، لإيواء الشباب العابرين في الطريق إلى الجبهة، لوضع المعدات اللازمة لإصدار نشرة الأنصار. إذا كانوا سيقتلونني، فإنهم كانوا سيفعلون ذلك في مكان آخر.

obeikandl.com

في اليوم التالي استيقظت مبكراً. قبل الخروج مررت بغرفة نبيل. قلت له: 'اليوم مثل البارحة. إذا لم تسمع مني حتى الساعة الواحدة بعد الظهر، فسارع إلى رمي كل شيء في القناة.'

من الواضح أن نبيلاً كان متوتراً. سألني: 'هل أنت على اتصال مع البوليس؟'

أجبت: 'لا، أنا لا أتحدث مع البوليس. أنا بصدد شيء آخر، غير أنني لا أستطيع أن أبوح لك به.'

كنت في القنصلية في الساعة التاسعة والدقيقة السادسة والخمسين وجلست في المكان المخصص للانتظار.

في تمام العاشرة والدقيقة الثالثة، خرج رجل يرتدي معطفاً مَطَرياً من المكتب ومشى نحوي. بدا في الأربعينيات من العمر، لم يكن وجهه مميزاً بأي علامة فارقة. أتذكر أنني شَبَّهْتُه بأحد معلمي المدارس.

وقف أمامي ومد يده قائلاً: 'صباح الخير، اسمي جيل.' صافحتُه، وتابع هو دون أي تغيير في تعبير وجهه أو نبرة صوته: 'سأخرج إلى الشارع الآن، وأريدك أن تتبعني بعد نحو ثلاث دقائق. ستراني على الزاوية. سأبدأ بالمشي وأريدك أن تتبعني. اترك مسافة جيدة بيننا. سأمشي نحو ثلاثين دقيقة. بعد ذلك سأقف أمام واجهة أحد المخازن التي تتاجر بالسجاد التحقْ بي هناك من فضلك وسوف نجد مكاناً نتحدث فيه.'

دار جيل بعد ذلك ومشى إلى خارج المبنى. ما لبثتُ أن تبعته، ورأيته واقفاً على الزاوية وهو يدخن سيجارة على بعد ما يقرب من خمسين متراً. ثم انعطف يميناً باتجاه الممر 44 وتبعته. انعطف عدداً من المرات، غير أنه بقي معظم الوقت في شوارع مزدحمة. كان ثمة حشد كبير من المارة المشاة الذين كانوا أحياناً يحجبون رؤيتي، غير أنني كنت دائماً أعود إلى العثور عليه. تبعته على امتداد

عدد غير قليل من كتل المباني، رغم أني بقيت باستمرار ماشياً على الرصيف المقابل للشارع.

بعد نحو نصف ساعة بدأت أشعر بالتعب. وبالغضب. كنت أعلم أنه كان يحاول أن يتحرى ما إذا كان أحد يتعقَّبني أم لا، ما إذا كنتُ مصطحباً أشخاصاً أم لا. بعد كل مجموعة مباني كنت أرى السيارة نفسها: سيارة أودي سوداء اللون مع امرأة شقراء خلف المقود. عرفت أنها كانت تتبعني، تقتفي كل خطوة من خطواتي. وثمة كان رجل آخر في معطف مَطَري بيج رأيته ثلاث مرات: مرة كان يحمل جريدة، مرة كان يشتري فطيرة في الشارع، ومرة كان ينتظر في أحد مواقف الحافلات. كنت قد قضيت عمراً في المغرب وأنا أحاذر عناصر الشرطة السرية لأتَّقي شرَّهم، فبدا لي هذا أشبه بلعب أطفال.

أخيراً، بعد أربعين دقيقة، وقف جيل أمام مخزن للسجاد قريب من ساحة روجيه. قطعتُ الشارع ومشيتُ إليه ماداً يدي لمصافحته كما كان قد أوصاني. مد يده كما لو كان يريد مصافحتي، غير أنه ما لبث أن مدها إلى ظهري تحت معطفي ومررها بلطف على ظهري وجبيني.

سألته: 'ما الذي تفعله؟'

'أحاول أن أعرف ما إذا كنت مسلَّحاً أم لا.'

'صحيح، أنا أعرف ما أنت بصدده، ولكن ما الذي يجعلك تظن أنني أحمل سلاحاً بحق الشيطان؟'

'ربما أنت غير شاعر بالأمان، لا أعرف.'

'هل تظن أنني على درجة من الغباء تجعلني آتي مصطحباً مسدساً لمقابلة أحد عملاء جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE؟'

ابتسم جيل وأشار إلى مدخل أحد الفنادق على مسافة نحو أربعين متراً. دخلنا وتوجهنا مباشرةً إلى المصعد. أبلغني جيل أن شخصاً ثانياً كان سيبقى جالساً في أثناء حوارنا، غير أن علي ألا أبالي.

غادرنا المصعد على الطبقة السابعة ومشينا في الممر. كان المكان هادئاً تماماً؛ كان فندقاً فاخراً، بأضواء خافتة وسجاد سميك. في نهاية الممر وقف جيل أمام أحد الأبواب وقرعه. بعد ثوانٍ قليلة قام رجل بفتح الباب. كان الرجل شاباً رياضياً بالغ اللياقة البدنية، من الواضح أنه حارس شخصي (بوديغارد). لم ينبس ببنت شفة. اكتفى بالجلوس إلى طاولة صغيرة وبقي محدِّقاً في شاشة كمبيوتره المحمول.

كانت الغرفة صغيرة. طاولة، جهاز تلفزيون، عدد قليل من الكراسي، ولا شيء آخر. جلسنا، جيل وأنا. مائلاً عليَّ قال: 'هيا قل لي! ما هي قصتك؟'

بدأت كلامي: 'أمضيت الأشهر الخمسة الأخيرة وأنا أشتري الرشاشات والذخائر للجماعة الإسلامية المسلحة. إلا أنني سرقْت من الجماعة مبلغاً من المال وهم الآن عازمون على قتلي.'

سألني: 'وكيف عرفت أن من عملت معهم كانوا من الجماعة الإسلامية المسلحة؟'

مددت يدي إلى جيبي، سحبت نسخة من الأنصار، عرضتها عليه قائلاً: 'هل تعرف هذه النشرة؟'

أخذ جيل الورقة وعاينها بدقة. قال: 'نعم، نحن على علم بالأنصار. من أين حصلت على هذه الورقة؟'

'إنهم يكتبونها ويطبعونها في بيتي. أنا أحشو الظروف بها كل أسبوع وأرسل نسخاً منها إلى سائر أنحاء العالم. هؤلاء الشباب، أعني الزبائن الذين يكتبونها

هم الذي أعمل عندهم. اشتريت لهم مئات الرشاشات وعشرات آلاف الطلقات حتى الآن.'

لم يقلْ جيل شيئاً، أيَّ شيء، وبقي وجهُه شبه خالٍ من التعبير. غير أنه قام بتعديل جلسته قليلاً، واستطعت أن أفهم من عينيه أنني أَثَرْتُ اهتمامَه. حتى الحارس الشخصي رفع رأسه ونظره عن شاشة كمبيوتره المحمول. 'حسناً' قال جيل 'وما الذي تريده منا ثمناً لمعلوماتك؟'

'أريد منكم أن توفروا الحماية لأهلي. أريد منكم أن تُخْرجوا هؤلاء الناس من البيت. لا أريد لأمي أو لأخي الأصغر أن يقعا في أي وَرْطة بسبب الأفعال التي يقوم بها هؤلاء. وأريدكم أن تمنحوني هوية جديدة ـ حياة جديدة، عملاً، أي شيء. أريد أن أفلت من براثن هؤلاء الزبائن قبل أن يقتلوني.'

بقي جيل صامتاً وراح يعايننني لبضع ثوانٍ قبل أن يرد قائلاً: 'أستطيع حماية عائلتك، غير أنني لا أستطيع أن أعطيك كل ما تريده. فأنت لم تقدِّم ما يكفي بعد. إذا كنت راغباً في الحصول على كل هذه الأشياء فسوف يتعين عليك أن تفعل المزيد من أجلنا.'

سألتُه: 'وكيف أستطيع فعل المزيد؟ أنا لا أستطيع أن أعود إليهم. لستُ مازحاً، فهؤلاء لا يعرفون معنى الرحمة. سيقتلونني.'

راح جيل يتكلم ببطء وهدوء وقال: 'بلى، تستطيع أن تعود. هيا عد إلى البيت وقل لهم إنك ستعيد المبلغ. قل لهم، جميعاً، إنك تائب إلى الله وراغب في العودة إليه سبحانه وتعالى. سيتعين عليهم أن يقبلوك من جديد لحظة قولك هذا. ثم ستعود إلى كسب ثقتهم. تذكَّرْ أنهم بحاجة إليك أيضاً. فهم بأمس الحاجة إلى الرشاشات التي تزوِّدهم بها.'

فَعَل الكلامُ فِعْله. استخدم جيل كلمة ريبنتير (repentir التوبة) الفرنسية، إلا أنني كنت قادراً، من اللغة التي استخدمها، على إدراك أنه كان يشير إلى عبارة

توبوا إلى الله توبة نصوحاً العربية، التي تعني التماس العفو من الرب تعالى؛ مباشرة علمت أن جيل كان متخصص دراسات إسلامية، ومحيط باللغة الأصولية.

'غير أنني سرقت خمسة وعشرين ألفاً من الفرنكات، وقد بددتها. لا أستطيع تسديدها.'

'لا بأس. أستطيع أن أحل لك مشكلة المبلغ، غير أن الأمر سيستغرق نحو أسبوع من الوقت. عد إلى البيت الليلة وقل لهم إنك ستتدبر أمر المبلغ قريباً. حاول أن تركِّب عذراً ما، حجة معينة.'

عرفت أشياء كثيرة عن جيل في ذلك الحوار. علمت أنه صاحب نفوذ في جهاز الدي جي اس إي، لأنه عرض المبلغ دون العودة إلى أحد. علمتُ أنه كان سيحصل عليه؛ ما كان ليقول لي إنه كان سيعود ومعه المال لو لم يكن قادراً على أن يفعل.

عرفت أيضاً أن جيل كان يعرف أكثر بكثير مما باح به. ينبغي أن يكون قد سبق له أن اطلع على أشياء أخرى مكَّنَتْه من أن يدرك مدى احتمال انطواء معلوماتي على قدرٍ كبير من الأهمية. وهو لم يكن راغباً فقط في الحصول على المعلومات التي كنت قادراً على تقديمها إلى الجهاز الآن. كان يريد أن يحصل على المزيد من المعلومات في المستقبل. كان راغباً في أن أصبح جاسوساً.

وهكذا صِرْتُ جاسوساً لدى جهاز الدي جي اس إي الفرنسي (جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي). أخيراً وقعت في الفخ. كانوا يعرفونني، كانوا يعرفون عن عائلتي، كانوا يعرفون مكان إقامتي. وبوصفي جاسوساً كنت، أقله، صاحب شيء من السلطة عليهم. لم أوافق على العمل رغبة مني في محاربة الجماعة الإسلامية المسلحة. كان من شأن ذلك أن يأتي لاحقاً، لا في أثناء اللقاء

الأول بالتأكيد. حقاً، إن أقصى ما كنت أريده هو توفير الحماية لي ولأفراد عائلتي.

غير أنه كان يتعين علي أن أتنبه إلى شيء آخر. قلت لجيل: 'لابد لي من أن أتصل بالهاتف.'

'من الذي ستتصل به؟'

'لا أستطيع أن أبوح باسمه'

'يجب أن نعرف' قال جيل بنبرة صارمة.

أذعنت. 'علي أن أتصل بأخي. أمرتُه، أؤكد لك، بأن يلقي بكل الأسلحة في القناة إذا لم أتصل به حتى الواحدة.'

رفع جيل حاجبيه: 'لماذا أمَرْتَه بذلك؟'

'لأنني لم أكن واثقاً مما كنتَ ستفعله. كان من الممكن أن تقرروا اعتقالي، مما كان سيؤدي إلى عثوركم على جميع الممنوعات في البيت، فتسجنونني مع الآخرين.'

ابتسم جيل ثم ضحك قائلاً: 'يا لها من سرعة بداهة!'

لم نكن نحن الاثنين، جيل وأنا، سنتبادل الثقة الكاملة في أي من الأوقات - ولو على نحو تقريبي. غير أن الجليد كان قد بدأ يذوب قليلاً. مشى معي إلى كوة الهاتف في الشارع، اتصلت بأخي وقلت له أن يُبْقي كل شيء في مكانه، أن يترك الأسلحة حيث هي. ثم عدنا إلى غرفة الفندق حيث أمر الحارس الشخصي بالذهاب. سجل جيل رقماً على قطعة من الورق ناولني إياها، قائلاً إن علي أن أستعمل الرقم عندما أكون بحاجة إلى الوصول إليه. كان يتعين علي أن أترك رسالة أحدد له فيها مكان وجودي فيعود إلى الاتصال بي مباشرة.

ثم دس جيل يده في جيب معطفه وسحب ظرفاً. ناولني الظرف. قال: 'سأحصل لك على المبلغ العائد لهم في الأسبوع القادم. إلى ذلك الحين هاك بعض المال.'

سارعت إلى دفع الظرف باتجاهه فوراً. قلت: 'لا أريد شيئاً. أنا لا أريد مالكم. أردت فقط حمايتكم.' كنت أعني ما قلته. كنت راغباً في توفير المعلومات لجيل والجهاز، إلا أنني لم أكن مستعداً لتمكينهما من التحكم بي. إذا كنت سأعمل عندهما فكان ينبغي لذلك أن يتم وفق شروطي أنا.

نظر جيل إليّ باندهاش حين شرحتُ موقفي. إلا أنه ما لبث أن تكلم بصوت هادئ قائلاً: 'اطمئن. ليس هذا راتباً. أعتقد فقط أن عليك أن تأخذ هذا المبلغ مقابل المعلومات التي زوّدتنا بها. اسمع، أنا أعرف أنك بحاجة إلى المال.'

فأخذت الظرف المحشو بالأوراق النقدية.

لدى عودتي ذلك اليوم، كان حكيم هو الذي فتح الباب. حَدَّقْت في عينيه وقلت: 'آسف أنا جداً بسبب ما اقترفت من فِعْلَة يا أخي. لقد أخذت المال وأنا نادم في أعماقي. لقد تبت إلى الله سبحانه وتعالى بكل صدق ومن أعماق قلبي، وقد صلّيت له داعياً إياه أن يلهمك أنت والإخوة الآخرين العفو عني.'

كنت غارقاً في بحرٍ من الأسى. كان حكيم قد فعل أشياء مرعبة - بل كان قد تحدث عن قتلي. غير أنه كان لا يزال أخي، كنت شديد الكره لاضطراري إلى الكذب عليه. كنت كارهاً لفكرة التحول إلى جاسوس أتجسس عليه. لم أكن متوفراً على أي خيار آخر.

تابعت كلامي: 'أنا خجل مما فعلته. سأعيد المبلغ بطريقةٍ ما. أرجو أن تمنحوني فرصة بضعة أيام فقط. لا أريد سوى العودة إلى الله.'

حَدَّق حكيم فيّ لمدة دقيقة. استطعتُ أن أرى أنه كان يفكر بعمق. اعتقدت أنه كان موشكاً على أن يقول شيئاً، ولكنه ما لبث أن استدار ودخل البيت ثم أمسك بالباب ودعاني إلى الدخول.

وأنا أسير خلفه شعرت بأن العفو قد تم. أن يكون حكيم قد اقتنع أو لم يقتنع مسألة أخرى، إلا أنها لم تكن ذات أهمية. لم يكن ثمة أي شيء آخر كان يستطيع أن يفعله. كان يعرف الشرع الإسلامي أكثر مني بما لا يقاس، ولم يكن يستطيع أن يشكك بكلامي إذا قلت إنني راغب في العودة إلى الله. لم يكن مسموحاً له أن يضرب أخماساً بأسداس حول نواياي. إذا قلت تُبْتُ إلى الله فما عليه إلا أن يصدقني.

إذا كذبت ووقعت في الخطيئة من جديد، فقد كان، على أي حال، قادراً على إعدامي.

الصور

بعد أسبوع قابلت جيل من جديد. تركت له رسالة على الرقم الذي كان قد زودني به، فأعاد الاتصال ليحدد مكاناً للاجتماع. اتبعنا الروتين نفسه الذي اعتمدناه في المرة الأولى: تبعته على مسافة نحو ثلاثين متراً مدة نصف ساعة تقريباً، وكنت بعد كل بضع كتل مباني أرى الوجوه ذاتها التي كان قد سبق لي أن رأيتها منذ ما لا يزيد على بضع دقائق. وكما في المرة الأولى انتهينا إلى فندق قريب من ساحة روجيه، وإن لم يكن الفندق السابق. لم يكن ثمة أي شخص ثالث في الغرفة هذه المرة.

ما إن جلسنا حتى صارحتُ جيل بأنني علمت أن زبانيته كانوا يتعقبونني. رد: 'لا تكن سخيفاً.' وضحك. لم أتابع الجدل غير أنني كنت واثقاً من أنني كنت على حق. تابع جيل كلامه: 'عندي لك أخبار سارة. المبلغ معي. أريدك أن تبقى

في البيت وأن تتحلى بالهدوء والتواضع. عليك أن تستعيد ثقتهم، ولسوف نعرف المزيد لاحقاً.'

أعطاني مبلغ الآلاف الخمسة والعشرين من الفرنكات، وتحدثنا لعدد إضافي من الدقائق القليلة قبل المغادرة. بعد زمنٍ طويل، قال لي جيل إنه، حين غادرني بعد ذلك اللقاء الثاني، لم يكن واثقاً من أنني كنت أخطط لإعادة المبلغ إلى طارق، بدلاً من الاحتفاظ به لنفسي. أزعجني ذلك حقاً.

ما إن وصلتُ إلى البيت حتى سلّمتُ المبلغ إلى حكيم ليعيده إلى طارق. لم أعد قلقاً من التعرض للقتل من قبلهم، غير أنني كنت متأكداً من أنهم لن يثقوا بي من جديد في الوقت نفسه. وفي الحقيقة فإن أميناً وياسين كانا يبقيان عندنا فتراتٍ أقل فأقل، ولم أكن قد رأيت طارقاً منذ اليوم الذي كنت سطَوْتُ فيه على المال.

بعد ثلاثة أيام من إعادة المبلغ إلى حكيم، نزلتُ إلى الطبقة الأرضية لأجده جالساً إلى مائدة المطبخ مع أمين وياسين. حين رأيتهما أغلقت الباب محاولاً تجنبهم. إلا أن ياسين كان قد رآني فناداني إلى المطبخ. وقفت أمامه وأمام أمين خافضاً رأسي، ثم استغفرتهما أيضاً.

نظرا إلي ببرود لبضع ثوانٍ، ثم تكلم أمين قائلاً: 'نحن نسامحك ونوافق على عودتك. من المؤكد أن الشيطان كان قد أغواك لبعض الوقت، غير أننا سعداء لأنك قررت العودة إلى الله.'

إذا وضعنا الشرع الإسلامي جانباً، فإن أميناً وياسين كان لديهما سببٌ آخر يدفعهما إلى مسامحتي: كانا بحاجةٍ ماسة إلى الأسلحة. كنت قد طلبت من لوران عدداً من رشاشات العوزي قبل اتصالي مع جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اسم إي) ببضعة أيام، وكان ياسين يريد الرشاشات الآن.

غير أن علاقتنا الآن كانت مختلفة. لم يعودوا واثقين بي. بعد نحو أسبوعين عاد طارق إلى الظهور، وبُعَيْد ذلك بدأت الصناديق والعلب والمعدات تغادر البيت. بل وقاموا أيضاً بترحيل جهاز الفوتوكوبي. من الواضح أنهم لم يعودوا يشعرون بالأمن هنا. كانوا قد عثروا على مكان جديد للإقامة والعيش.

قبل رحيلهم، أخذتُ ملفين من الصناديق الموجودة في المطبخ لإطلاع جيل عليهما. وواصلت أخذ قسائم التأكيد من جهاز الفاكس أيضاً. كان كل من أمين وياسين موجودين لدى وصول الفاكسات على الدوام. تابع أمين وياسين التردد على البيت بالوتيرة نفسها كما قبل انتقالهما. كذلك كان ثمة أعداد كبيرة من الرجال كانت لا تزال تدخل البيت وتخرج منه في الطريق إلى الجبهة. إلا أن طارقاً لم يكن يأتي إلا نادراً، كما أنني لم أعد أرى كمالاً قط.

واصلتُ إيصال طلبات ياسين إلى لوران. كنت دائباً على شراء الكثير من الأشياء نفسها. من الطلقات والبنادق أحياناً، والمناظير الليلية بين الوقت والآخر. مع مرور الوقت صار ياسين يطلب معدات إلكترونية كثيرة أيضاً: سكانرات راديو، محوِّلات، وأشياء شبيهة. بدأت المياه تعود، شيئاً فشيئاً، إلى مجاريها. أو أقله إلى وضعها فيما قبل انتقال طارق.

دَرَجْتُ على لقاء جيل مرة كل أسبوعين. كنّا نتبع النظام نفسه في كل مرة. كنت أتصل بالرقم الذي زوَّدَني به، وكان هو يحدد المكان الذي كنت أستطيع أن أجده فيه. كنت أتبعه، ثم لا نلبث أن نعقد اجتماعاً في أحد الفنادق الفاخرة، عادةً في مكان قريب من ساحة روجيه. كل مرة، كان، في نهاية اللقاء، يعطيني نحو ثمانية آلاف فرنك، أحياناً أكثر قليلاً، ثمناً للمعلومات التي أكون قد زوَّدتُه بها. على هذا الصعيد كان جديراً جدارة كاملة بالثقة. لم أضطر قط إلى تذكيره أو مطالبته بالمال.

كان أقل أهلاً للثقة من نواحٍ أخرى، وبدا الأمر فظاً في البداية. كان جيل ذا مزاج دكتاتوري: كان مولعاً بالتسلط الدائم. كان يريد أن يلقِّنني كل ما يتعين علي أن أقوله لكل من أمين، ياسين، وطارق. ظل دائباً على دفعي إلى التسلل إلى 'حَلَقَتهم الداخلية' موجهاً إياي إلى الطريقة الناجحة. غير أنني كنت صاحب النفوذ - صاحب المعلومات التي كان بحاجة إليها - ولم أكن سعيداً بتلقي الأوامر منه. صارحتُه بذلك، أكثر من مرة، وكنت أعلم أنه كان منزعجاً.

أنا أيضاً كنت غاضباً. كنت واثقاً من أنه كان مستعداً لأن يجردني من كل شيء إذا ما مكَّنته من ذلك. كنت سأكف عن أن أكون ذُخْراً بالنسبة إليه؛ كنت سأغدو نقطة ضعف. كان من شأنه أن يصبح بحاجة إلى التخلص مني، وكان يستطيع أن يضعني في السجن، أو أن يفعل بي ما هو أسوأ. لم أكن مستعداً لأن أسمح لذلك بأن يحدث.

وهكذا ما لبثنا مع مرور الزمن أن توصلنا إلى نوعٍ من التوافق الصعب المتوتر. عموماً، لم يكن يسأل عن أشياء محددة. كان يكتفي بطرح سؤال: 'ما الذي يجري؟' فأحدِّثه عما كنت قد رأيته. أحياناً كنت أزوِّده بأشياء مادية مثل قسائم الفاكس أو الملفات كنت قد فتحتها لأجدها مجرد قائمة عناوين طويلة بعضها في فرنسا وبعضها الآخر في تونس. لم يبدُ الأمر استثنائي الأهمية بنظري، غير أن جيل بدا بالغ السرور. أثنى على ما قمت به من عمل.

كان جيل شديد الاهتمام بالأنصار. أراد أن يعرف المزيد عن الختم الذي كنت قد رأيته مع طارق. سألني عما إذا كنت قد رأيت أحداً غيره مستخدماً الختم أو آخر شبيهاً فنفيت. سألني عن العناوين التي كنا نرسل النشرة الإعلامية إليها فأفَدْتُه بأنها كانت تذهب إلى سائر أطراف العالم. لم يكن الأمر مقتصراً على أوروبا أو أفريقيا أو الشرق الوسط، بل كان يشمل الولايات المتحدة وكندا والبرازيل والأرجنتين وروسيا وجنوب أفريقيا وأستراليا - كل الأمكنة،

أيضاً. كان جيل يسجل ملاحظات بالغة الدقة عن هذا كله، وأستطيع أن أؤكد أنه كان مهتماً.

وما أكثر ما كنا، جيل وأنا، نستعرض الصور؛ آلاف الصور في غضون بضعة أشهر. كان يطرح رُزَماً من الصور على الطاولة ويسألني عما إذا كنت أتذكر أصحابها. في البداية لم يكن سوى عدد قليل ممكن تذكرتهم: أمين، ياسين، طارق، حكيم. ولكن الأعداد تزايدت مع مرور الزمن: ثمة كان أولئك الذين جاؤوا لتناول العشاء، آخرون جاؤوا لركن السيارات أو أخذها، وغيرهم مروا بالبيت في الطريق إلى الجبهات ومنها. بدا جيل عارفاً أشياء كثيرة عن بعض هؤلاء سلفاً؛ كان يعرف عدداً كبيراً من أسمائهم. كثيراً ما كان يسعى للحصول على المزيد من المعلومات مني أنا: معلومات عَمَّنْ تحدث مع من، من أين كان يأتي هذا وإلى أين كان يذهب ذاك، ما اللغة التي كانوا يستخدمونها، من كان المسؤول. كان يريد أن يعرف أسلوب عمل التنظيم. تمثَّلتْ مهمتي بسد الثغرات في المعلومات المتوفرة لديه سلفاً.

لم تكن الصور من بلجيكا فقط. مرات كثيرة كان يعرض علي صوراً لرجال أعرفهم، ولاسيما طارق في بلدان أجنبية. صور من فرنسا، إسبانيا، هولندا، إنجلترا. أدركت أن الجهاز كان سيتعقب الشخص الذي أتعرف عليه في كل مرة.

من هذا كله عرفت تدريجياً نتفاً إضافية من المعلومات عن الجماعة الإسلامية المسلحة. عرفت أن أميناً كان رئيس العمليات السياسية للخلية كلها في بروكسل. ياسين كان يدير الجناح العسكري؛ كان مسؤولاً عن تأمين الذخيرة واللوجستيات اللازمة لنقلها من مكان إلى آخر.

أحياناً، كنت أتحدث مع جيل عن السياسة أيضاً. لم يطلب مني قط رأيي حول هذه الأمور، إلا أنني كنت أبوح به على أي حال بين الحين والآخر. قلت له ذات يوم:

'اعلموا أنكم خاسرون سلفاً'

'خاسرون ماذا؟' سأل جيل

'معركتكم ضد الإرهابيين. نعم أنتم خسرتم المعركة وانتهى الأمر.'

كان جيل فضولياً وسأل عن السبب الكامن وراء كلامي. قلت له إنني كنت أعتقد أن المسلمين في جميع الأمكنة كانوا يتمردون على الحكام الدكتاتوريين الذين كانوا يعيشون في ظلهم. في كل من تونس، المغرب، مصر، الجزائر وسائر بلدان الشرق الأوسط، كان المسلمون يعرفون أن حكوماتهم مدعومة من فرنسا، إنجلترا، أو الولايات المتحدة. صحيح أن العيش في ظل هذه الأنظمة القمعية كان على درجةٍ كافية من السوء، ولكن معرفة كونها مجرد دمى بأيدي دولٍ صهيونية أو مسيحية كانت أسوأ. كان ذلك يثير غضب المسلمين ويدفعهم إلى كره الغرب. وقد أدى إلى جعلهم غير واثقين بالديمقراطية، لأنهم كانوا يرون مدى لا ديمقراطية البلدان الغربية إذا كان الأمر يصب في خدمة مصالحها. قلت له إن العنف كان سيظل مستمراً طوال بقاء القوى الغربية دائبة على التلاعب بالعالم الإسلامي.

لم يكن جيل يعلق ولو بكلمة على ما كنت أقوله حول هذه الأمور. كان يميل إلى الخلف ويصغي فقط.

حين كان يقع حدث غير عادي، كنت أسارع إلى إبلاغ جيل به. وقد كان جيل استثنائي الاهتمام بإلياس، ذلك الرجل المقيم في لندن الذي كان طارق على اتصال به فيما يخص الأنصار. كان جيل يطلب المزيد من المعلومات عنه ـ عن إلياس ـ إلا أن الأشياء الوحيدة التي استطعت تزويد جيل بها عنه تمثّلتْ بقسائم تأكيد جهاز الفاكس لأنني لم أكن قد رأيت إلياس هذا قط.

وبالتالي فقد كنت شديد الاهتمام حين سمعت يوماً كلاً من ياسين، أمين، وحكيم يتحدثون عن إلياس. وحين طلب حكيم مني صباح اليوم التالي الذهاب معه إلى المطار لاستقبال أحدهم، سارعت إلى انتهاز الفرصة.

في المطار استقبلنا رجلاً معه حقيبة صغيرة. كان صغير السن - في أوائل عشرينياته. لم يبادر حكيم إلى تقديم أحدنا للآخر، مما أبقاني عاجزاً عن تأكيد أنه كان إلياس على الرغم من افتراضي أنه هو.

اصطحبناه إلى البيت، ثم بادرنا، بعد بضع ساعات، إلى نقله إلى أحد مرائب السيارات في الجزء الشمالي من بروكسل. كان ياسين وأمين قد رافقانا، ولدى الوصول إلى المرآب نزل الجميع، باستثنائي أنا، من السيارة.

سألت: 'هل أستطيع مرافقتكم؟'

رد أمين: 'لا. ابق أنت في السيارة.'

راقبتهم، إذن، من السيارة. وقف الأربعة في حُزْمة لبضع دقائق، ثم اقترب منهم شخص خامس. لم أر الجهة التي جاء منها. كان أقصر قامة من الرجل الذي استقبلناه في المطار، أكبر سناً بكثير - أقله، في الثلاثينيات من عمره. كان حليق الرأس والذقن. من الواضح أن الآخرين نظروا إليه باحترام - حتى من السيارة، استطعت أن ألاحظ أنهم كانوا يتعاملون معه بقدرٍ كبير من الاحترام.

تحدث الرجال الخمسة لبضع دقائق، ثم قام الأصغر سناً بتسليم الحقيبة إلى الأكبر سناً. سارع الجميع، عدا الرجل الأكبر سناً، إلى العودة إلى السيارة. ثم أعدنا الشاب إلى المطار حيث أنزلناه ليلتحق بالرحلة المُغادِرة إلى ستوكهولم.

حين قلت هذا كله لجيل، بدا شديد الانفعال وأراد معرفة المزيد عن الرجل الأكبر سناً، ذلك الذي كنت قد راقبته وأنا في السيارة. لم أستطع أن أكثر من الكلام عنه، غير أنني تمكنت من وصفه. كان جيل شديد الاندهاش. أكْثَر من الابتسام وأفاد بأنني كنت قد حققتُ إنجازاً عظيماً.

كان جيل قد بدا على الدرجة نفسها تقريباً من الاندهاش في مناسبةٍ أخرى، حين علمتُ أن لطارق اسماً آخر. اكتشفتُ هذا بالصدفة. ذات يوم، كنت في البيت حين كان طارق أيضاً في الوقت نفسه مشغولاً بتلقي الفاكسات. بقي لتناول العشاء. نبيل أيضاً كان في البيت، ومعه صديقه علي؛ ونحن الثلاثة كنا نخطط للذهاب إلى السينما.

بعد انتهائه من تناول الطعام، صعد نبيل إلى الطبقة العليا لجلب معطفه. وهو على السلم نادى علياً باسمه - أراد أن يسأله عن شيء - انتبه علي ورد على سؤال نبيل. غير أنني لاحظت أن طارقاً انتبه أيضاً، بل وفتح فاه ليقول شيئاً. تماسك بسرعة ولزم الصمت على الفور. أطرق وركّز على متابعة الأكل كما لو أن شيئاً لم يحصل.

في المرة التالية التي قابلت فيها جيل أبلغته بأن طارقاً استجاب لاسم علي. نشر ابتسامة عريضة على وجهه واضطجع على أريكته قائلاً: 'تلك معلومات جيدة. نعم جيدة جداً.'

بعد نحو شهرين من العمل مع جيل، سئمتُ من كل الهراء المتمثل بالخنجر تحت العباءة. كنت قد زوَّدْت جيل بكميات كبيرة من المعلومات، وكان هو قد قال لي غير مرة إنني كنت أقوم بعملٍ ممتاز. وبالتالي فقد أزعجني أنني بقيت ملزماً باتباع الإجراءات التي طُبقت على لقائي الأول رغم تكرر لقاءاتي. في كل مرة كان يتعين علي أن أتبعه في شوارع بروكسل كلها لمدة نصف ساعة، وإن كانت الرحلة تنتهي بالضرورة في أحد فنادق ساحة روجيه. وفي كل مرة كنت ألاحظ أقله واحداً من زبانيته متعقباً إياي.

جابهتُ جيل حول الموضوع مرة بعد أخرى. أبلغتُه بأنني كنت أعرف أنني متبوع وطلبت منه أن يكشف السبب. بقي مصراً على الإنكار قائلاً: 'ما الذي يجعلني بحاجةٍ إلى تعقبك؟'

فيما بعد، بعد نحو عام كامل، بات الأمر كله عبثاً في عبث. كنت ماشياً خلفه عبر ممر تحت ساحة روجيه، بعد بقعة كان يقف فيها المشرد نفسه الذي كان يبيع الصحف كل يوم. كنت قد مررت بهذه النقطة مئات المرات، وكنت أعرف المشرد؛ بل وكنت قد اشتريت جريدته مرة أو اثنتين. كان المشرد عجوزاً هزيلاً، أسنانه مسوسة ومتداعية في فمه. غير أن المكان كان في ذلك اليوم مشغولاً برجل آخر. كان الزبون الجديد متوسط العمر، بديناً بعض الشيء. أسنانه سليمة مئة بالمئة.

ما إن وصلنا، جيل وأنا، إلى غرفة الفندق، حتى انفجرت ضاحكاً. قلت له: 'صارحني الآن! هل أنت مصر على أن تستمر في القول بأنك لا تراقبني؟ رأيت الزبون الجالس في الممر تحت ساحة روجيه إنها قصة مثير للسخرية.'

أخيراً، انهار جيل. ابتسامة هادئة غطت وجهه. قال: 'حسناً، حسناً' وهو يضحك. 'أنت على صواب. لقد ألقيتَ القبضَ عليّ. ما الذي أستطيع قوله؟'

على امتداد هذه الأشهر، أمضينا، جيل وأنا، مئات الساعات ونحن نتحدث كل منا إلى الآخر. في الحقيقة تحدثت معه أكثر من أي شخص آخر. صرنا نتبادل نكات صغيرة، وكثيراً ما كنت أجدني ميالاً إليه. وأعتقد أنه كان يُعجَب بي أحياناً أيضاً. إلا أنه كان لا يلبث أن يقترف فِعْلة بشعة، لا لشيء إلا ليؤكد لي أنه صاحب القول الفصل الممسك بزمام الأمر. كنت أقاوم لأثبت أنه كان واهماً.

ذات يوم، كوّم رزمةً من الصور على الطاولة طالباً مني معاينتها. ما إن نظرت حتى رأيت صورة نبيل. حملت الصورة وعرضتها عليه قائلاً: 'ما هذه الصورة بحق العُهْر؟ أنتم تعرفونه تمام المعرفة. إنه أخي نبيل. لا علاقة له بأي شيء من كل هذا.'

هز جيل كتفيه واعتذر، إلا أن الصورة ما لبثت أن ظهرت على الطاولة بعد بضعة أسابيع. ثار غضبي هذه المرة. صرخت: 'أبعد هذه الصورة. أخبرتك مئة مرة. إن نبيلاً ليس متورطاً على الإطلاق في أي من هذه النشاطات. لا أريد أن أرى هذه الصورة مرة أخرى أبداً.' كنت أرتجف من شدة الغضب.

لم يعد جيل قط إلى عرض تلك الصورة علي. إلا أنني لم أنسَ الحادث في الوقت نفسه. فأنا كنت قد لجأت إلى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) لمعرفتي أنه عديم الرحمة، وكنت أعرف، بالتالي، أن من شأن جيل أن يكون، هو الآخر، بلا رحمة، بالضرورة. بصرف النظر عن المودة التي صار يبديها، فقد كنت على يقين دائم بأنه لم يكن ليتردد في قذفي، جنباً إلى جنب مع أخي وأمي، إلى الذئاب فور انتهائه من مهمة الحصول على كل شيء كان يريده مني.

رحلة إيرفرانس رقم 8969

يوم 24 كانون الأول/ديسمبر 1994، تغير كل شيء بالنسبة إلي. ذلك هو اليوم الذي أقدم فيه أربعة من أعضاء الجماعة الإسلامية المسلحة على اختطاف طائرة ركاب عائدة إلى الخطوط الجوية الفرنسية (إيرفرانس) على مدرج مطار مدينة الجزائر.

طوال السنة واظبتُ على قراء طوفان من المواد عن تصعيد الحرب الأهلية في الجزائر. كانت الجماعة الإسلامية المسلحة قد استولت على قطاعات واسعة من الريف. كانت تقتل الناس دون تمييز ـ تقتل النساء، الأطفال، حتى المواشي. كانت تهاجم المدارس العلمانية وتذبح المعلمات والمديرات، بل وحتى التلاميذ والتلميذات أحياناً. كنت اطلع على هذا كله من قراءة الأنصار التي لم تكن تكتفي بالكلام عن الهجمات بل كانت حريصة أيضاً على تبريرها شرعياً ولاهوتياً. كانت

تزعم أن هذه الهجمات على المدنيين كانت مشروعة لأن هؤلاء الناس كانوا يدعمون النظام العدو - مما لم يكن يعني سوى أنهم لم يكونوا من مؤيدي الجماعة وداعميها. وهذا كله كان، بالطبع، منطقياً ومعقولاً بالنسبة إلى كل من أمين، ياسين والآخرين. أما بنظري أنا فقد بدا خطأ في خطأ من الألف إلى الياء. مع الزمن كانت الجماعة تزيد من محاولاتها الرامية إلى إقحام فرنسا في الحرب. كانت تستهدف مواطنين فرنسيين على نحوٍ خاص؛ ففي الخريف الماضي كانت قد قتلت خمسة من موظفي السفارة الفرنسية.

معظم ركاب طائرة الخطوط الجوية الفرنسية كانوا مسلمين. فالناس الذين يطيرون من باريس إلى مدينة الجزائر وبالعكس، ليسوا، في الغالب، إلا مهاجرين ذاهبين لزيارة الأهل. إلا أن الجماعة لم تكن تبالي. كانت فقط تريد أن تظهر للعالم أنها كانت تهاجم فرنسا. لم يكن الأمر بالنسبة إلى الجماعة سوى رمز.

بدأت عملية الاختطاف بجريمة قتل. كان المختطفون قد هَرَّبوا عدداً من رشاشات الكلاشنكوف إلى داخل الطائرة، وبعد بضع ساعات ألقوا بجثة أحد الركاب إلى المدرج. كان المغدور أحد ضباط الشرطة الجزائريين. هدد المختطفون السلطات بقتل المزيد من الركاب إذا لم يُسمح لهم بالإقلاع. ولكن السلطات الجزائرية رفضت الإذعان للتهديد، فسارع عناصر الجماعة إلى قتل راكب آخر ورمي جثته إلى الأرض. جرى هذا كله في الساعات القليلة الأولى.

لم يكن عندنا تلفزيون في البيت. فالتلفزيون طاغوت، رجس من عمل الشيطان، بالطبع. غير أن الأحداث كانت تتطور بسرعة إلى درجة أصبحتُ معها عاجزاً عن مواكبتها عبر قراءة الصحف في الفناك. اشتريت جهازاً صغيراً خاصاً وهربته إلى داخل غرفة نومي. بقيت ملتصقاً بالجهاز طوال فترة المحنة.

بعد يوم كامل من بدء الاختطاف، كانت الطائرة لا تزال جاثمة على المدرج في مطار الجزائر. لم يكن الجيش مستعداً بعد للسماح بإقلاع المختطفين. في ساعة متأخرة من الليل في 25 كانون الأول/ديسمبر، أعدم المختطفون راكباً ثالثاً بالرصاص وألقوا به إلى المدرج، كما كانوا قد فعلوا مع الآخرين.

حقاً كان غريباً أن يتابع المرء هذا كله على شاشة التلفزيون. منذ أشهر وأنا عاكف على قراء سائر القصص المرعبة المنشورة في الأنصار وأحياناً في الصحف الفرنسية أيضاً. كانت سلسلة طويلة من قصص حَزِّ الرقاب، المذابح الجماعية، تفجير السيارات. إلا أن الرؤية على شاشة التلفزيون كانت مختلفة. فمشاهدة تلك الجثث على المدرج، وتصوُّر ما كان محتمل الحدوث في الداخل، جعلاني أشعر بالغثيان والرغبة المادية في التقيؤ بطريقةٍ لم يسبق لي أن شعرت بها وأنا أقرأ الروايات منبطحاً على أرضية الفناك. بقيت دائم التفكير بركاب الطائرة، بالتأكيد كانوا مرعوبين جداً. لم يكونوا قد اقترفوا أي ذنب. لم يفعلوا سوى زيارة الأهل ثم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم في هذا الكابوس الرهيب.

كنت شديد التوتر والانفعال وأنا أتابع ما كان يجري. بقيت في غرفتي أنظر كل الوقت إلى شاشة التلفزيون وأصلّي داعياً ألاّ يتم قتل المزيد من الناس. غير أنني نزلت مرة إلى الطبقة الأرضية لجلب بعض الطعام، ووجدت في غرفة الجلوس كلاً من أمين، ياسين، وحكيم، وطارق. كانوا منتشين، سعداء وهم يتحدثون عن حادثة الاختطاف. كانوا يعقدون الآمال على حصول مذبحة لخَطْف اهتمام العالم. جعلني هذا أُحِسُّ بالمزيد من القرف والرغبة في التقيؤ.

بعد ثلاثة أيام من بدايتها، انتهت عملية الاختطاف. سُمح للطائرة بالإقلاع واستُدرج المختطفون إلى أمر الطيارين بالهبوط في مرسيليا حيث بادر الفرنسيون إلى اقتحام الطائرة. تمت عملية تبادل كثيف لإطلاق النار. كانت

الشرطة الفرنسية والمختطفون يتبادلون إطلاق النار داخل الطائرة حيث كان الركاب لا يزالون في أمكنتهم. أقدم المختطفون على استعمال القنابل، وعدد كبير من الركاب أصيبوا بالشظايا. أحد الطيارين كان شديد الرغبة في الخلاص إلى درجة أنه قفز من النافذة إلى المدرج. عند الانتهاء كان المختطفون جميعاً قتلى، وكان عدد كبير من الركاب جرحى.

لاحقاً سمعت أن المختطفين كانوا مزوَّدين بكميات كبيرة من الديناميت. كانوا يخططون لتفجير الطائرة فوق باريس - قنبلة نارية عملاقة ليراها العالم كله. ربما كانوا مستعدين لتعطيلها لو كانوا يعرفون كيف يقودون الطائرة. تعين عليهم بدلاً من ذلك أن يعوّلوا في تنفيذ مهمة التفجير على طياري سلاح الجو بدلاً منهم هم أنفسهم. وبعد سنوات، اكتشفت أن القاعدة كانت تعلمت من هذا الخطأ. أعداد كبيرة من مجندي القاعدة صارت تلتحق بمدارس الطيران.

بعد يوم واحد من انتهاء عملية الاختطاف كنا نتناول العشاء معاً. الآخرون كانوا فرحين. وكانوا يعبرون في صلواتهم عن الرغبة في أن يتبعوا خطوات المجاهدين الشجعان: 'نسألك اللهم أن تمنحنا القوة التي كانت لدى هؤلاء الإخوة. نتوسل إليك، اللهم، أن تمنحنا نعمة الشهادة مثلهم!'

ومن ثم قالوا لي شيئاً خارقاً للعادة. أكدوا أن المختطفين لم يموتوا، بل هم أحياء في السماء، هناك في الجنة، في أحضان الحوريات اللواتي خُصِّصْنَ لهم مكافأة لشهادتهم. لم يكن قد سبق لي أن سمعت بمثل هذا الكلام، ولم أستطع تصديقه. لم أكن أعرف الشيء الكثير عن القرآن في هذه الفترة، لم أكن أعرف سوى ما كنت قد تعلمته في المدرسة وأنا طفل وما كان أخي حكيم قد لقَّنني إياه في المغرب. غير أن احتمال قيام الرب بمنح مثل هذه المكافأة لمن كانوا قد أقدموا على قتل أناس أبرياء بدا احتمالاً غير ذي معنى.

كل الأشياء أصبحت أكثر سوءاً بعد يوم. عاد أمين وياسين مصطحبين شريطاً مسجلاً استمعنا إليه في غرفة المعيشة. كان الشريط من داخل الطائرة. دام التسجيل أكثر من ساعتين؛ استطعنا سماع كل شيء. سمعنا أصوات المفاوضين الذين كانوا يطالبون المختطفين بسوق الطائرة إلى البوابة. كان المختطفون يرفضون تلبية الطلب ويهددون بقتل المزيد من الركاب. وسمعنا المختطفين يتحدثون عن الوقود للطائرة. وبعد مدة، سمعنا أصوات ركاب يصرخون، والمختطفين يتحدثون بأصوات مرتفعة عن المجاهدين وعن أنهم سيعرضون على الطاغوت الفرنسي صورة عن قتال المجاهدين في الساحات الجزائرية. "الله أكبر! الله أكبر!" ومن ثم دوي طلقات الرصاص.

كان شيئاً مرعباً. كان كل شيء على الشريط رهيباً. كان يكفي أن يتصور المرء حالة الرعب التي لابد أن الركاب عانوا منها طويلاً. من المؤكد أنهم اعتقدوا بأنهم كانوا سيموتون في الطائرة.

إلا أن ما كان الأشد إثارة للفزع هو أننا كنا قد حصلنا على الشريط.لا أحد كان يملكه؛ لم يتم بثه عبر القنوات التلفزيونية أو الراديو. لا شك أن أحد أعضاء الجماعة الإسلامية المسلحة كان قد سجل الشريط عبر جهاز سكانر من مكان ما في مطار الجزائر، أو ربما في مطار مرسيليا. وهو شخص كان يعمل مع المختطفين. شخص على صلة بأمين وياسين.

كانت تلك المرة الأولى التي شعرت فيها بمدى قربي الشديد من هذا الهول كله. أعلم أنني كنت أستطيع أن أقدِّر الأمر من قبل، غير أنني فضَّلْتُ ألا أفعل، اخترت ألا أكون صريحاً مع نفسي. كنت أشتري الرشاشات لياسين لأن الأمر كان مثيراً، ولأنني كنت بحاجة إلى المال. ما أكثر ما كنت أوهم نفسي زاعماً أن الأسلحة موجهة إلى أمكنة بعيدة، إلى البوسنة أو بلاد الشيشان، أنها

كانت تُستَخْدَم لخوض حروب مشروعة ضد أعداء الإسلام! لم أكن، بالطبع، غافلاً، في الحقيقة، عن أن أكثرية هذه البضاعة كانت تذهب إلى الجزائر، إلا أن ذلك لم يكن يزعجني في البداية. كانت مشاعري قد بدأت تتغير مع إكثاري من القراءة، ومع قيام الجماعة الإسلامية المسلحة باعتماد أساليب أعنف وأشنع.

بات كل شيء مختلفاً بنظري الآن. الناس على متن الطائرة كانوا بشراً حقيقيين بنظري: كانوا مهاجرين عرباً مقيمين في أوروبا يحبون أهلهم ووطنهم أرادوا قضاء العطلة في مسقط الرأس. كانت الجماعة الإسلامية المسلحة قد حاولت أن تقتلهم جميعاً. كان الأمر مرعباً جداً بالنسبة إليَّ، وحين سمعت الشريط المسجل أدركتُ أنني كنت على صلة بكل ما حصل. صحيح أنني لم أكن قد ضَغَطْتُ على الزناد، غير أن من المحتمل أن أكون قد وَفَّرْتُ الرشاشات والطلقات. فأنا قاتل، إذن، مثلهم تماماً.

حتى اللحظة كنت آكل من اليد التي كانت تطعمني. باليدين، كلتيهما، أحياناً لأنني كنت أحصل على المال من جيل مع الاستمرار في نيل حصتي من الصفقات التي كنت أُسَمْسِرُ عليها مع لوران. أما بعد الآن فقد قررت أن أحارب الجماعة الإسلامية المسلحة بكل ما لديَّ من قوة. عمليات القتل هذه كانت شنيعة. كنت أعلم ذلك بوصْفي إنساناً ومسلماً. بصرف النظر عما إذا كنت أتردد على الجامع أم لا، إذا كنت أؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم أم لا، كنت مسلماً ومؤمناً بالله. هذه الفظاعات، عمليات ذبح الأبرياء، لم تكن ذات علاقة بالإسلام الذي كنت أعرفه. كان زمن التغافل وغض الطَرْف قد ولّى. كان كل شيء قد تغير.

السَّمْتَكْسْ (Semtex)

في لقائي التالي مع جيل أطْلَعْتُ الأخير على مدى انزعاجي من عملية الاختطاف. حدثته عما كُنْتُ أقرؤه عن الجماعة الإسلامية المسلحة وعن عدم قدرتي على فهم عجز أخي حكيم والآخرين عن إدراك مدى انحراف هذه الجماعة عن الإسلام. قلت إنني راغب في الاضطلاع بدور حقيقي في الحرب على الجماعة، في القيام بما هو أكثر، على صعيد خدمة جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE)، من مجرد المهمات البسيطة التي كنت أتولاها في هذا المجال.

ظل جيل يومئ ويصغي، ولكن دون أن يقول شيئاً. غير أنه ما لبث أن قال لي، بعد بضعة أسابيع، إنه كان يرى أن شيئاً قد تغيّر فيَّ حقاً. أما في البداية فبقي محصور الاهتمام بشريط التسجيل الذي كان ياسين وأمين قد جلباه إلى البيت. أراد أن يعرف ما إذا كنت قادراً على تأمين نسخة عن الشريط له، أفدتُه بتعذر ذلك لأنهما كانا قد أخذاه. سألني عن زمن حصولنا على الشريط فقلت له إن ذلك تم بعد انتهاء عملية الاختطاف بأقل من ثمانٍ وأربعين ساعة. بدا جيل بالغ الاندهاش.

وقد كان أكثر اندهاشاً حين أَفَدْتُه بأن ياسين كان، بعد يومين من الاختطاف، قد كلفني بشراء متفجرات من لوران. ولجهلي الكامل بالمتفجرات كنت قد سألت ياسين عن المطلوب وكان قد قال إنه كان يريد متفجرات بلاستيكية. تعين علي أن اكتشف الأنواع التي كان لوران يستطيع توفيرها.

ما إن قلت هذا لجيل حتى بدا شديد التوتر والحدة. قال على الفور: 'يجب عليك أن تجتمع مع لوران.' أبلغته، لوران وأنا، كنا قد حددنا موعداً للقاء خلال يومين.

'اتصل بي فور انتهاء اللقاء. أريد معرفة ما يقوله لك بالتحديد.'

كان جيل يعرف عن لوران أكثر مما كنت أعرفه أنا. كان قد عرف عنه حتى قبل لقائنا. غير أننا مع المتفجرات كنا ننتقل إلى ساحة جديدة، واستطعت أن أرى أن جيل بات قلقاً.

لم أكن واثقاً من توفر لوران على المتفجرات. وفي لقائنا أثرتُ الموضوع معه بشيء من الحذر قائلاً: 'لا أعرف ما إذا كنت تتعامل مع مادة المتفجرات بالمطلق يا لوران، وإذا لم تكن فإنك تستطيع أن تنسى أنني طرحت عليك هذا السؤال. أريد شراء كمية من المتفجرات.'

عَبَّر لوران عن قدر واضح من الاندهاش. 'لماذا تريدها؟'

أجبتُه: 'لا أستطيع أن أبوح بالسبب.' غير أنني عرفت ما قصده. ثمة أنواع كثيرة مختلفة من المتفجرات. ربما كنت أبحث عن شيء لمجرد نسف باب أحد الأبواب أو خَزّانات البنوك. ولكن قد أكون راغباً في شيء أقوى بكثير لنسف إحدى السفارات أو إحدى الطائرات. إذا كان الأمر كذلك فإن المتفجرات قد تؤدي إلى افتضاحه بعد مدة. وقد كان لوران أذكى من أن يعرِّض حياته للخطر مقابل صفقة ببضعة آلاف من الفرنكات. بالطبع لم يكن لوران مستعداً للإقرار بكل هذا، غير أنني كنت واثقاً منه.

تابعت كلامي: 'أقطع لك وعداً يا لوران بأن ذرة واحدة من هذه المواد لن تبقى في أوروبا.' حَدَّقْتُ في عينيه وأنا أقول ذلك، ودام تحديقنا المتبادل بضع ثوانٍ.

'موافق!' قال أخيراً 'هيا نَعُدْ إلى بيتي لنتحدث في الأمر.'

كان ذلك تطوراً جديداً. لم يكن قد سبق لي أن كنت في بيت لوران من قبل. خرجنا من المدينة وقطعنا مسافة نحو نصف ساعة في سيارته، على

الطريق باتجاه ليبج. وعند انعطافنا عن الشارع الرئيسي أصبحنا في الريف. قطعنا مسافة بضعة كيلومترات ثم توقفنا أمام فيلا كبيرة على سطحها ثلاثة صحون لاقطة للأقمار الصناعية. لم يكن ثمة أي بيوت أخرى قريبة. ساق لوران السيارة إلى منعطف رملي وصولاً إلى ما خلف الفيلا. صُعقت إذ رأيت عشر سيارات أخرى في الممر. عشر سيارات سوداء جميلة: ست سيارات بي ام في، مرسيدسان، جاغوار واحدة وبورش واحدة. سألته: 'هل تتاجر بهذه السيارات؟'

'لا، إنها لي.'

لم أستطع أن أصدق. منذ أشهر ولوران كان راكباً سيارة رينو صغيرة متداعية. ملابسه أيضاً لم تكن خاصة: بدت رخيصة، بعضها واضح القدم. عندما رأيت السيارات، أدركت أن لوران كان ناجحاً جداً في وقت من الأوقات. أما الآن فقد بدا على طريق الهبوط أو الانحدار. ما من تاجر أسلحة كبير كان سيهتم ببيع الطلقات بالكميات الصغيرة التي كنا نطلبها: بالألفين، والخمسة آلاف في الدفعة الواحدة.

دخلت المنزل عبر نوع من الرواق لنصل إلى غرفة جلوس كبيرة. منذ لحظة دخولي أدركت أن شيئاً لم يكن صحيحاً. ثمة رائحة غريبة لم أستطع تحديدها كانت تفوح من البيت.

عاينّتُ غرفةَ الجلوس. كان الأثاث ثميناً غير محذلق. بدت الأشياء كلها حديثة جداً ولكن بطريقةٍ ملائمة لمثل هذا البيت الأنيق. جهة اليمين كان جهاز تلفزيون عملاق، جَلَسَتْ أمامه امرأة على وسادة. بدت مفرطة البدانة، ربما في الأربعينيات من عمرها. حين سمعتْ وقعَ خطواتنا رفعت يدها ترحيباً دون أن ترفع رأسها. كانت عاكفة على تدخين غليون مخدرات.

مباشرة توجه لوران نحو اليسار حيث كانت طاولة طويلة عليها مصباح بونزن (مصباح كحولي). جلس أمام المصباح وباشر العمل. حاولتُ مفاتحته بشأن المتفجرات إلا أنه كان قد أصبح في عالم آخر كلياً. للمرة الأولى منذ التقيتُه بدا منفعلاً، في حالة نشوة. يداه كانتا ترتجفان. كان معه أنبوب زجاجي فيه سائل راح يسخِّنه على اللهب. بعد بضع دقائق كان السائل قد تلاشى، وسارع هو إلى تفريغ المسحوق الأبيض المتبقي في الأنبوب في أحد الغلايين. من الواضح أن هذا الغليون كان قد استُعمل كثيراً لأن حواف الحوض كانت مسودة متشققة. قام لوران بتناول جرعة سريعة، مستنشقاً بعمق. أبقى المخدِّر في جوفه عدداً من الثواني قبل أن يزفره أخيراً. كنْتُ شاهداً على ارتخاء جسده من أخمص القدم إلى قمة الرأس.

سرعان ما انتفض واقفاً وطلب مني أن أتبعه إلى المطبخ. رفع علبة عن الأرض وفتحها. كان ثمة عشرة إلى خمسة عشر عَقْرباً، مسدساً رشاشاً تشيكياً.

'هل تريد شراء بعض هذه؟'

'سأسأل مُعَلِّمي. أما الآن فأريد أن أبحث معك موضوع المتفجرات.'

أعاد لوران العلبة إلى الأرض وهز كتفيه قائلاً: 'حسناً، ما اللون الذي تريده؟'

لم تكن عندي أي فكرة عما عناه. قلت: 'ليتني أعرف فقط ما هو متوفر.'

أفاد لوران بقدرته على توفير سي واحد، سي اثنان، وربما سي ثلاثة (C1, C2, C3) لم أكن أعرف ما كان يعنيه ذلك غير أنني بقيت حريصاً على إخفاء جهلي عن لوران. قلت 'أوكي! سيتعين علي أن أتأكد من النوعية المطلوبة. سأُعْلِمك.'

لحظة قيام لوران بإنزالي من السيارة في مركز المدينة، اتصلت مع جيل عبر أحد أكشاك الهاتف المأجور وتركتُ رسالة. أعاد الاتصال فوراً وأبلغته بما كان قد حدث. بدا قلقاً وطلب مني أن أتصل به بعد الكلام مع ياسين مباشرةً.

بعد وصولي إلى البيت حَدَّثْتُ ياسين عن زيارتي مع لوران. لم يُبْدِ أي اهتمام بالعقارب التشيكية، وطلب مني أن أكتشف ما إذا كان لوران قادراً على تأمين نوع آخر من المسدسات الرشاشة، طراز تيك ـ 9 (TEC-9).

بدا ياسين سعيداً جداً حين علم أن لوران كان قادراً على تأمين المتفجرات، ومستعداً لبيعها. 'في المرة القادمة سله عما إذا كان متوفراً على السَّمْتَكْس (Semtex). كذلك استفهم عما إذا كان قادراً على تأمين الصواعق.'

وَعَدْتُ بأن أفعل. غير أن أمراً غريباً حدث بعد ذلك: طلب ياسين مني أن أدله على عنوان لوران. فوجئتُ. كان قد مضى على تعاملي مع لوران نحو عام كامل، ولم يكن قد سبق لياسين أن سألني أي سؤال عن لوران. آنذاك اعتقدت أن ياسين كان متوتراً لمعرفته بحقيقة أننا كنا نتجاوز أحد الخطوط الحمراء. إن الأسلحة شيء، ولكن الاتجار بالمتفجرات شيء مختلف تماماً وأخطر بما لا يقاس. لم يكن ياسين قادراً على معرفة هوية لوران. ربما كان عنصر أمن وكانت العملية كلها مجرد مصيدة. ربما كان عازماً على التسبب باعتقالنا جميعاً بعد قيامه بتسليمنا المتفجرات. كان من المحتمل أن يكون أي شخص.

بعد بضعة أسابيع فهمتُ السبب الكامن وراء اهتمام ياسين البالغ بلوران. إلا أنني آنذاك وافقت على أن أدله على عنوان لوران. رافقت أميناً وياسين في السيارة ذات عصر إلى هناك، إلى حيث بيت لوران. وبعد ذلك لم يعد أحد يتحدث عن الموضوع.

obeikandl.com

مباشرةً اتصلت مع جيل لأخبره عن السمتكس والصواعق. كان شديد اللهفة والتوتر. قال: 'اتصل بي فور حصولك على أي من هذين البندين. سأكون بحاجة إلى رؤيتهما.'

حين اجتمعت مع لوران أبلغتُه بالمطلوب. أخذ نَفَساً عميقاً حين أتيت على ذكر السمتكس. قال: 'إنه بالغ الصعوبة. لماذا لا تستخدمون نوعية أخرى؟ أستطيع أن أؤمن لكم مادة الديناميت. يمكنني أن أوفر لكم أنواع أخرى من البلاستيكيات.'

قلت له إننا كنا نريد السمتكس تحديداً.

'لا أعرف ما إذا كنت سأستطيع. لا أظن، غير أنني سأحاول. الصواعق ستكون أيسر.' اتفقنا على اللقاء ثانية في غضون ثلاثة أيام.

وبعد ثلاثة أيام التقينا وذهبنا بالسيارة إلى بيته مرة أخرى.

وفيما كنا موشكين على الجلوس في مطبخه قال لوران: 'مازلت غير متأكد من إمكانية تأمين السمتكس. أستطيع رغم ذلك أن أزوِّدكم بالسي ثلاث (C3) مباشرة. هاك صاعقك!' على المائدة الرخامية أمامه وضع أسطوانة فضية رفيعة، بطول خمسة سنتيمترات تقريباً. لم يكن قد سبق لي قط أن رأيت صاعقاً فمددت يدي لحمله ومعاينته أكثر. انقضَّ عليّ لوران وأَمْسَك بيدي.

صرخ: 'إياك! حذار حَمْلَه هكذا. ستَقْتُل نَفْسَك، أو أقله، ستطير ذراعك.' شرح لي أن الصاعق شديد الحساسية. كان من شأن حرارة يدي وحدها أن تكون قادرة على إيقاده. ناولني لوران قطعة من الورق وأفهمني أن علي أن أُبقي الصاعق ملفوفاً بها. أعطاني اسم الصاعق وطلب مني أن أخبره عن العدد المطلوب.

ما إن غادرت المكان حتى اتصلت مع جيل. وفور عودته إلى الاتصال قلت له: 'الصاعق صار معي.'

obeikandl.com

حدد لوران مكان اللقاء وقال: 'أوكي. سأكون هناك خلال ساعة.'

حين عرضت الصاعق على جيل اكتشفت أنه كان يعرف الشيء الذي يتعين عليه البحث عنه: رقم صغير على الحافة. سجله، ثم رفع رأسه ونظر إلي قائلاً: 'كن شديد الحذر مع هذا. إياك أن تُسقطه أو تجعله يلامس أي شيء آخر. يمكنك أن تقتل نفسك. أحسنت صنعاً إذ لففته بهذه الورقة.'

ثم عدت إلى البيت وعرضت الصاعق على ياسين. حمله بقدرٍ كبير من الحذر بأطراف أصابعه. وبعد معاينته لبضع ثوانٍ، أومأ وقال: 'جيد. ما السعر الذي يطلبه؟'

قُلْتُ له. أطلق صفرة خفيفة. قال:

'إنه باهظ جداً. واثق أنا من أنني أستطيع الحصول عليه بأقل من ذلك من شخص آخر. قل له إننا لا نريد الآن إلا رشاشات التيك TEC'.

حين أعدت الحوار الذي دار بيننا على مسامع جيل لم يرتح على الإطلاق. كلانا كنا نعرف أن ياسين كان يلعب لُعْبَتَه المعهودة بغية خفض سعر الصواعق. لم تكن هذه سوى البداية.

سيارة الأودي

كانت الأمور كلها متسارعة. في الوقت نفسه تقريباً طلب مني ياسين أن أشتري كمية متفجرات من لوران، وطلب مني حكيم أن أبادر إلى شيء أكثر خروجاً على المألوف. كنا في مهمة بسيطة في المدينة، مستقلين سيارة بيجو صغيرة لم يكن قد سبق لي أن رأيتها من قبل. في طريق العودة قام حكيم بصف السيارة جانباً وطلب مني أن أتولى القيادة لبعض الوقت. بدا هذا غريباً إلا أنني سايَرْتُ الموقف. ما إن انطلقت بالسيارة حتى أدركتُ أن السيارة كانت تعاني من خلل معين. ظلت تميل يساراً وتعين علي أن أبذل أقصى جهدي لإبقائها على المسار الصحيح. ما لبث حكيم أن طلب مني التوقف، ففعلت.

سألته: 'ماذا وراء هذا كله؟'

'أريد منك خدمة يا أخي.'

'أي خدمة؟'

بعد فترة من الصمت بدأ حكيم يتكلم ببطء: 'ثمة أخ في المغرب، إنه أحد أصدقائي الصدوقين جداً. اشتريت له سيارة هدية، غير أنه لا يستطيع أن يأتي ليأخذها لأنه لا يتوفر على جواز سفر. أرجو أن تكون مستعداً لقيادة السيارة وإيصالها إليه.'

صُعقْتُ. قلت: 'ما الذي تتحدث عنه أنت؟ أنت تعلم أنني لا أملك حتى إجازة سوق.'

سارع حكيم إلى الرد: 'تلك ليست مشكلة. سيرافقك أخ آخر. هو يحمل إجازة، يستطيع أن يسوق وصولاً إلى ميناء ألجزيراس. سيتعين عليك فقط أن تتولى القيادة من رصيف العَبَّارة في طنجة إلى مركز المدينة.'

شعرت بالدم الصاعد إلى وجهي. لم أستطع أن أصدق أن حكيماً كان يظن أنني كنت 'سأقبض' قصته عن إرسال سيارة هدية إلى أحد أصدقائه. بادرته بنبرة هادرة قائلاً:

'إذا كنت راغباً في تكليفي بعمل ما يخصك، فإن من الأفضل لك أن تكشف عنه بالتحديد. أنا لن أوصل سيارة إلى المغرب كرمى لعينك ما لم تقل لي بدقة ماذا يوجد بداخلها. لا تحاول أن تستهبلني يا حكيم. لستُ غبياً.'

اكتفى أخي بالتحديق في وجهي دون أن ينبس ببنت شفة. نزلت من السيارة وابتعدت.

بعد ليلتين جاء حكيم إلى غرفتي. أمرني: 'تعال معي. يتعين عليّ إيصال بعض المؤن إلى أحد أصدقائي، أريدك أن تلتقيه.'

obeikandl.com

كانت طريقته في الكلام منطوية على شيء غريب؛ ثار فضولي. رافقته إلى السيارة. بعد أن قطعنا نحو كيلومتر واحد انعطفنا إلى أحد الشوارع السكنية. توقفنا أمام مبنى يضم شققاً سكنية ونزل حكيم وفتح بوابة باحة داخلية. ثمة كان أربعة كراجات في الباحة. كان أحدها مضاء. مشينا نحو الكراج المضاء وقرع حكيم الشباك.

فُتح الباب ورأينا رجلين. أحدهما كان ميكانيكياً كما تبين من بدلة عمله الغارقة في بقع العرق والزيت. نحو مؤخرة الكراج كان ثمة ستارة، استطعت أن أرى خَلْفَها المصَدَّ الخلفي لسيارة.

الأرضية أمامنا كانت مغطاة بأكوام من سائر أنواع البضائع والأشياء، رزم كثيرة من الأوراق النقدية، بنادق ومسدسات، محولات أجهزة راديو. وأشياء بدت أشبه بمكعبات الطوب ملفوفة بورق أبيض. من الواضح أن الميكانيكي كان يفكك السيارة ليحشوها بهذه المواد.

قال حكيم بضع كلمات للرجلين وأعطاهما كيس بقالة كان قد جلبها معه. ثم غادر.

وهو يهم بالمغادرة عائداً إلى البيت التفت إليّ وسأل: 'هل ستنفذ؟'

أجبته فوراً دون توقف ولو لثانية: 'نعم سأنفِّذ.'

لو قلت 'لا'، لاعتقد حكيم جازماً بأنني لم أكن قد تُبْتُ حقاً، بأنني لم أكن قد عدت إليه وإلى الآخرين بالمطلق. أما إذا قلت 'نعم' فقد كان من شأن حكيم والآخرين أن يثقوا بي من جديد ثقة كاملة. لم يكن جيل يكف عن مطالبتي بالعمل على التسلل إلى داخل حلقتهم المركزية الضيقة. أدركت أن هذه كانت فرصتي.

قابلت جيل في اليوم التالي. حدثته عن طلب حكيم، عن الكراج. استقامتْ جلستُه وهو يسألني عما رأيته. عندما حدثته عن القوالب المكعبة، أومأ وأفاد بأنها ربما كانت من مادة السمتكس.

سألني جيل: 'إذن أنت موافق على تنفيذ المهمة؟' كان واضح التوتر والعصبية، غير أنني كنت أعرف أنه كان يريدني أن أقوم بالمهمة. كان راغباً في الكشف عن آليات العمل. كان يريد أن أتوغل في الحلقة الداخلية.

أجبته: 'نعم. وَعَدْتُه سلفاً.'

قال: 'أنت تعلم أن العملية شديدة الخطورة. يدنا ليست طويلة في إسبانيا أو المغرب. إذا ما جرى اعتقالك، لن نتمكن من مساعدتك في شيء.'

قلت: 'أعرف ذلك. أنا لا أخطط للذهاب إلى المعتقل.'

تنهَّدَ جيل وقال: 'على بركة الله، إذن. اسمع ما أريده منك: أريدك أن تخبرني بكل شيء عن السيارة. أريدك أن تعلمني بموعد المغادرة. وأريد منك أن تتصل بي كلما توقفت على الطريق لتبلغني بمكان وجودك لأتمكن من مواصلة تعقُّبك.'

عاد جيل إلى الاضطلاع بدور المعلم الآمر، فأزعجني. كنت قد أقْدَمْتُ على القيام بمهمة خطرة على نحوٍ لا يصدق، وكان هو يحاول أن يتأستذ عليّ ويعلّمني كيف أنفّذها. لم أكن مستعداً لأن أمكّنه من ذلك، لا لمجرد عنادي رغم أنه أحد الأسباب بالتأكيد. كان من المستحيل أن أمكّنه من تعقُّبي عبر فرنسا من أولها إلى آخرها وأنا في سيارة ملآى بالمتفجرات. لم أكن أثق به؛ ولو شاء لاستطاع أن يجعل الشرطة توقفني وتفتش السيارة. فأُمضي باقي عمري في السجن. وإذا ما خطر له أن يتواطأ مع الشرطة المغربية فقد كان من شأن الأمر أن يكون حتى أسوأ من ذلك.

قلت له: 'مستحيل. لن أحدد لك مكاني. سأتصل بك بعد الوصول وبعد إنجاز المهمة.'

قال بغضب: 'إذا لم نعرف مكان وجودك فلن نستطيع مساعدتك إذا وقعت في ورطة.'

'سأخاطر.'

في الساعة الثالثة تقريباً من فجر اليوم التالي، أعادني حكيم إلى الكراج لأخذ السيارة. كان السائق قد سبقنا، وبانتظارنا. سبق لي أن رأيته في البيت بضع مرات. كان اسمه جمال. كان ذا لحية طويلة، هادئاً جداً. بدا مُكَرِّساً كلَّ وقته على قراءة القرآن.

كانت السيارة جاهزة. سيارة أودي خضراء اللون. ثمة كانت مقطورة موصولة بالمؤخرة كما كان المعقد الخلفي محشواً بحشد من الأشياء المختلفة: سجاجيد، علب، أجهزة إلكترونية. كان يُفتَرض أن نَبْدو كما لو كنا مهاجرين عائدين إلى المغرب لزيارة الأهل. قبل المغادرة زوَّدني حكيم برقم هاتف خليوي. أوصاني بأن استخدمه بعد الوصول إلى المغرب للاتصال بياسين الذي كان سيعطيني التوجيهات التي تمكّنني من الاهتداء إلى هدفي.

خرجنا من بروكسل متوجهين نحو باريس. كان جمال خلف المقود. لم نكن قد قطعنا مسافة ذات شأن حين بدأنا نعاني من خلل في السيارة. كانت حرارة المحرك ترتفع، وكان جمال ينظر إلى المؤشر بعصبية. بعد لِيل Lilleبنحو عشرين كيلومتراً قررنا التوقف وإلقاء نظرة. كان الماء في المبرِّد يغلي ويطف. كانت معي قنينة ماء في السيارة، سكبت ما فيها على المحرك لتبريده.

قطعنا بضعة كيلومترات إضافية، ثم بدأت السيارة تحدث جلبة مخيفة. حين نظرت إلى جمال رأيت أنه كان مذعوراً؛ وعلى الرغم من بقائه صامتاً استطعت أن أرى شفتيه تتحركان بسرعة خارقة. كان يصلي ويدعو.

طلبت من جمال أن يَصُفَّ جانباً. نزلت من السيارة ومشيت إلى المَخْرَج التالي حيث وجدتُ هاتفاً بالأجرة في قرية صغيرة واتصلت بمؤسسة المساعدة الأوروبية (Europe Assistance). وأي شيء آخر كنت أستطيع أن أفعل؟ كان

لابد لنا من إبعاد السيارة عن الطريق الرئيسية. عدت إلى السيارة وأطلعت جمالاً على ما كان يجري؛ بدا موشكاً على الانهيار من فرط القلق والخوف. لم يقل شيئاً اكتفى بمواصلة الدعاء والصلاة.

ما لبثت إحدى القاطرات أن وصلت وسارع العمال إلى قَطْر سيارة الأودي. جمال وأنا ركبنا الأودي فيما تولت القاطرة جَرَّنا جميعاً. بعد بضعة كيلومترات وصلنا إلى قرية صغيرة، قام السائق بفك سيارتنا أمام محل لإصلاح السيارات.

لم يكن واضحاً كيف كنا سنستطيع إصلاح السيارة. كان المحرك يعاني من خلل محدد، وكنت شبه متأكد من طبيعة الخلل: كان الميكانيكي في بروكسل قد حشى كل سنتيمتر بالأوراق النقدية والمواد. تصورت أنه كان قد وضع مواد في قعر خزانات السوائل بطريقةٍ ما، الأمر الذي كان من شأنه أن يفسر الارتفاع الدائم لحرارة السيارة. ولكن كيف كنا سنتمكن من إصلاح السيارة دون أن يقوم أحد باكتشاف ما بداخل أحشائها؟

حين قام صاحب المحل بالإصلاح رفع الغطاء، كان الدخان يتصاعد من المحرك. بدأ ينظر إلى كل شيء قطعة قطعة. كان لابد لي من مراقبته مثل الصقر للتأكد من عدم اهتدائه إلى أي مهربات. سألني عدداً من المرات عما إذا كنت راغباً في الدخول إلى المكتب وأخذ قسط من الراحة، فأجبته بالنفي. ظل جمال واقفاً بجانبي طوال الوقت، مشغولاً بالدعاء الصامت.

دام الأمر نحو عدد من الساعات. أخيراً رفع الميكانيكي رأسه وأنزل الغطاء. التفت إلي وقال: لا أستطيع أن أفعل شيئاً. المحرك هالك مئة بالمئة. يتعين عليك تغييره. أستطيع استدعاء قاطرة تجرك أنت وسيارتك غداً إذا أردت، فتستطيع أن تعود بها إلى بروكسل.

أبقينا السيارة ليلتها هناك لعدم وجود أي مكان آخر نأخذها إليه. عملياً تعين عليّ إبعاد جمال؛ اعتقد أنه كان مستعداً لأن ينام في السيارة لو استطاع.

ثم اتصلت مع حكيم وأطلعته على ما جرى. انزعج كثيراً، وطلب أن نعود إلى بروكسل بأقصى سرعة ممكنة لنتمكن من إصلاح السيارة والانطلاق إلى السفر من جديد. بدأت أدرك أنهم كانوا مستعجلين وصول السيارة إلى المغرب حقاً.

جمال وأنا أمضينا الليل كله في أحد الفنادق ونحن في شجار. كنت أريد مشاهدة التلفزيون الذي كان هو يراه طاغوتاً (كفراً). كان يريد قراءة القرآن بدلاً من ذلك. كلما فتحت التلفزيون كان ينتظر بضع دقائق، لينقضَّ بعدها على جهاز التحكم عن بعد ويطفئ الجهاز. ثم كنت أنا آخذ جهاز التحكم وأعيد تشغيل الجهاز. كنت شديد الغضب منه حتى أنني هددته بأنني سأتركه في بروكسل في اليوم التالي وأتولّى القيادة وحدي إلى إسبانيا. رد قائلاً إن الإخوة لم يكونوا ليسمحوا بذلك على الإطلاق لعدم توفري على إجازة للسوق. قلت له إن الإخوة الذين أرسلوه معي كانوا أغبياء. للعرب ما يكفي من المتاعب مع عناصر الأمن في أوروبا، قلت، ولحيته المثيرة للسخرية كانت تجعلنا هدفاً واضحاً.

أوينا، كلانا، إلى النوم في تلك الليلة غاضبين. صباح اليوم التالي استيقظنا في ساعة مبكرة وركبنا مع سائق القاطرة التي أعادت سيارتنا إلى بروكسل جراً. لم نتبادل ولو كلمة واحدة. عدنا إلى الكراج، كان حكيم هناك بانتظارنا. ثمة كان محرك جاهز سلفاً في الداخل، ولم يكن المطلوب سوى إحلاله محل المحرك الهالك.

عدنا جميعاً، حكيم، جمال، وأنا، إلى البيت ونمنا ساعات قليلة. لدى مغادرتنا للبيت في الصباح الباكر، لاحظت أن جمالاً كان قد حلق ذقنه. لم يكن قد حلقها تماماً؛ اكتفى بتقصير شعر اللحية. كان عنيداً؛ كان يعرف أنني كنت محقاً فيما قلته عن اللحية، إلا أنه لم يكن يريد أن يذعن تماماً.

عند وصولنا إلى الكراج كانت السيارة جاهزة. عدنا إلى الطريق دون إضاعة المزيد من الوقت.

كانت الرحلة كارثية مئة بالمئة. كان الميكانيكي قد تعامل مع المحرك الجديد بالطريقة نفسها وقد تعين علينا أن نبقى شديدي الحرص كي نحول دون ارتفاع درجة حرارته. كنا نسوق ببطء شديد ونتوقف كل نصف ساعة لملء المبرد بالماء. ظل جمال مرعوباً كل الوقت وكان يسوق دون أن يتكلم. إضافةً إلى المحطات التي كنا نتوقف فيها لتبريد المحرك، كان جمال يتوقف أيضاً خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة. في كل مرة كنت أدخن بدلاً من الصلاة. كنت أرى أن ذلك كان يغيظه كثيراً. وإغاظتُه بالذات كانت هدفي.

تعطلتْ السيارة من جديد في جنوب فرنسا، وتعين علينا مرة أخرى أن نأخذها إلى ميكانيكي. لم يكن الوضع بالمستوى السابق من السوء، وقد استطاع الميكانيكي إصلاحه. هذه المرة أيضاً راقبنا عملية الإصلاح كلها من أولها إلى آخرها. من المؤكد أننا بَدَوْنا اثنين من المجانين.

مرة أخرى تعطَّلتْ السيارة لحظة عبورنا الحدود إلى إسبانيا؛ من جديد تسلقنا جبال البيرنيه. في كل مرة كنت أعالج الأمور بنفسي. كان جمال عديم الفائدة. وفي كل مرة تعين علي أن أتصل بالبيت وأبلغ حكيماً بأننا كنا قد تأخرنا. كان حكيم يزداد قلقاً باطراد. بل وقد رفع صوته في إحدى المرات طالباً مني أن أسرع، زاعماً أنني كنت موشكاً على إفساد المهمة جراء تأخري. كان ردي جاهزاً إذ قلت له إن السبب كان كامناً في تعامله، هو والآخرين، مع ميكانيكي لا يفهم شيئاً في اختصاصه.

أصبح الأمر أسهل قليلاً في أثناء الانحدار عن الجبال. كنا قادرين على إطفاء المحرك وترك السيارة تكرج مسافة كيلومتران دون تشغيل المحرك. غير أننا ما لبثنا، في ساعة متأخرة من الليل، وعلى مسافة نحو سبعين كيلومتراً من ألجزيراس، أن فوجئنا بالمحرك وقد التهب من جديد. تعين علينا أن نوقف السيارة منتصف الطريق. لم يكن ثمة أي شيء أستطيع أن أفعله هذه المرة. امتنع

المحرك عن الإقلاع. لم أكن مستعداً للسير في منتصف الطريق في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فجلست على قارعة الطريق ورحت أدخن السيجارة بعد الأخرى. بقي جمال شديد التوتر إلى درجة أنه لم يتمكن من الجلوس. راح ينوح شاكياً:

'ما الذي سنفعله؟ ماذا سنفعل؟'

كنت قد مللت منه ومن كلامه؛ لم يكن أمامي أي خيار سوى تجاهله وإشعال سيجارة جديدة غير أنني حين رفعت رأسي رأيت سيارة للشرطة مقبلة نحونا. كان جمال شديد الغضب والفزع. تضرع إليَّ قائلاً: 'إلى أين سنذهب؟ كيف نفلت منهم؟'

طمأنتُه وطلبتُ منه ألا يخاف. حين نزل عناصر الشرطة من السيارة اقتربت منهم وكلَّمْتُهم بالإسبانية. كنت ودوداً جداً، قلت لهم إن المحرك معطل. كانوا ودودين بالمقابل، وقالوا إن علي أن أبعد السيارة من منتصف الطريق بطريقةٍ ما.

هززت كتفي قائلاً: 'ولكن كيف؟'

ثم ابتسم أحد عناصر الشرطة وعرض مساعدته. اقترب بسيارة الشرطة من الأودي، أخرج "كابلاً"، قَطَر السيارة بالأخرى. جمال وأنا عدنا إلى الأودي وسحبتنا سيارة الشرطة نحو عشرين كيلومتراً. تركونا أمام محل لإصلاح السيارات في إحدى القرى الصغيرة. ولدى انطلاقهم مبتعدين ابتسم عناصر الشرطة لنا ولَوَّحوا مودعين ومتمنين لنا حظاً سعيداً.

قام هذا الميكانيكي بمعاينة كل شيء. بدا لي أنه كان يعاين المحرك قطعة قطعة. تعين عليّ أن أفيده بعدم توفري على ما يكفي من المال لإجراء إصلاحات جدية. لم أكن أريد سوى الوصول إلى العَبَّارة. كان يكفي أن يرقِّع المحرك قليلاً

بما يجعله قادراً على الوصول إلى العبّارة. كان جمال واقفاً بجانبي وهو يدعو ويسبِّح بوتيرة أكثر تسارعاً باطراد. يداه كانتا ترتجفان.

في إحدى اللحظات، لاحظت الميكانيكي موشكاً على مد يده إلى خزان الزيت. خشيت أن تكون أشياء مهربة مدسوسة هناك، فعبرت له عن عدم رغبتي في أن يلمس الخزان. نظر إلي كما لو كنت فاقد العقل.

سهرنا الجزء الأكبر من الليل مع الميكانيكي، إلا أنني لم أبال. كنت واثقاً من أن هذا الكابوس موشك على الانتهاء. كانت الطريق من بروكسل قد استغرقت ما يقرب من أسبوع كامل، وهي تُقطع عادة في يومين أو ثلاثة. أما الآن فقد كنا على مسافة ساعتين اثنتين فقط من العبارة.

غادرْنا، جمال وأنا، في ساعة مبكرة وسقنا ببطء، معاينين المحرك كل عشرين دقيقة أو نحوها. ومع وصولنا إلى أطراف ألجزيراس التفت إلي جمال وقال: 'عليك أن تستقل العبّارة المتجهة إلى سَبْتَة. فأجهزة الأمن هناك أقل كثافة مما هي في طنجة.'

بالطبع كان على صواب. فسَبْتَة نقطة إسبانية متقدمة مما جعل جهاز الأمن أقل تشدداً. غير أنها كانت أيضاً بلدة صغيرة جداً وأبعد بكثير من طنجة. حتى لو تمكنت من العثور على قاطرة في سبتة، وكان ذلك أمراً غير مؤكد، فإن نقل السيارة من هناك إلى طنجة كان سيستغرق عدداً من الساعات. لم تبدُ الفكرة جديرة بالاعتبار.

قلت: 'أعتقد أنني سأجرب حظي مع طنجة. نظراً للوضع الذي تعاني منه السيارة لم يكن أمامي أي خيار آخر.'

ظل جمال يلح. 'حقاً، أظن أن من الأفضل لك أن تذهب إلى سبتة.' كرر العبارة ثلاث مرات في غضون عشر دقائق. تجاهلتُه.

وصلنا إلى رصيف العبّارة ظهراً تقريباً. ثمة كان صف طويل من السيارات يزحف ببطء باتجاه العبّارة التي كانت تأخذ حمولتها. تولّى جمال قيادة السيارة لإدخالها في الصف. إلا أن السيارة ما لبثت أن تعطّلتْ من جديد. توقف المحرك. حاول التشغيل بضع مرات كي يقلع، ولكن شيئاً لم يحصل. جَمَدَتْ السيارة في مكانها. نظرتُ إليه. كان يحدِّق في الأفق البعيد أمامه. بدا كما لو كان موشكاً على البكاء.

قلت له: 'اذهب أنت يا جمال، مع السلامة!'

نظر إليّ مندهشاً.

قلت: 'لحيتُك أنت أكثر من جهاز الأمن في طنجة إثارةً لقلقي. ستلفت الأنظار هنا. من الأفضل أن تنزل من السيارة وترحل بعيداً.'

'حقاً؟' سأل جمال. بدا منفرجاً، ولكن ظلاً ما لبث أن عبر صفحة وجهه.

'هل أنت مصر على عدم أخذ العبّارة المتجهة إلى سَبْتة؟'

'نعم أنا مصر كل الإصرار' غمغمت بغضب. 'انقلع من هنا!'

بدا جمال كما لو كان موشكاً على أن يقول شيئاً، ولكنه لم يفعل، اكتفى بهز كتفيه. أخرج رزمة أوراق نقدية من جيبه وقدمها إليّ. كان ذلك ثمن تذاكر العبّارة وكل الأشياء الأخرى. لم يكن حكيم قد وثق بي، مما أبقى المبلغ مع جمال كل الوقت.

قال: 'ليكن الله معك في طنجة يا أخ.' ثم فتح باب السيارة ونزل. حين التفتُ بعد نحو ثانيتين كان قد اختفى تماماً.

بقيت جالساً في السيارة بضع دقائق وأشعلت سيجارة. لم يمضِ إلا القليل من الوقت قبل أن يقترب شرطي من السيارة ويقول: 'يتعين عليك أن تحرك السيارة يا سيد. ثمة أناس في الصف يريدون ركوب العبّارة وأنت تعوقهم.'

رفعت رأسي وابتسمت. قلت: 'أنا آسف. ولكن المحرك هالك. لا أستطيع تحريك السيارة.'

'إذن علينا أن نقطرها.'

'إلى العبّارة؟' سألت.

'لا إلى محل إصلاح. لابد لك من إصلاحها قبل ركوب العبارة.'

'ماذا لو دفعتها؟'

رفع حاجبيه وراح يعاين السيارة. حين درت لأنظر اكتشفت مقصده. إن السيارة محشوة بالسجاد والبسط والعلب كانت ثقيلة جداً حتى كاد الهيكل يصل إلى الأرض.

تلفتت حولي وحاولت الاهتداء إلى طريقة تخرجني من الورطة. تقاطعت نظراتي مع نظرات مغربي واقف عند مدخل العبارة. كان في ملابس مدنية، إلا أنه كان يقف مع آخرين اثنان منهم يحملان هاتفي ووكي توكي مثبتين على نطاقيهما. كان قد حرص على مراقبتي حين كنت أتحدث مع الشرطي.

نظرت إلى ضابط الشرطة: 'اعطني دقيقة. سأحاول العثور على أشخاص يساعدونني في دفعها.'

مشيت إلى مجموعة الرجال الواقفين أمام البوابة. كنت أعرف هذه النوعية من الزبائن؛ سبق لي أن رأيت كثيرين مثلهم خلال سنواتي في المغرب. كانوا يتظاهرون بأنهم موظفو جمارك أو بحّارة أو أي شيء آخر، غير أنهم لم يكونوا يفعلون شيئاً. كنت أعرف أنهم كانوا خبراء فَراسة، مدرَّبين على الاهتداء إلى الوجوه المثيرة للشك بين الحشود الصاعدة إلى العبّارة.

اقتربت منهم راسماً ابتسامة عريضة على وجهي وباسطاً ذراعي تعبيراً عن مدى كوني بلا حول ولا قوة. قلت بالفرنسية: 'أرجو أن تعذروني. أنا آسف جداً

لإزعاجكم. إلا أنني ذاهب لرؤية أهلي وسيارتي تعطلتْ.' أشرت إلى السيارة الواقفة في الصف. 'اشتريت السيارة ظناً مني أنني أستطيع بيعها في المغرب وكسب بعض المال. إلا أنني أنفقت على إصلاحها مبالغ طائلة في الطريق من بروكسل إلى هنا حتى أفْلسْتُ. لا أريد سوى إيصالها إلى العبّارة؛ إن أخي سيستقبلني في الطرف الآخر ومعه قاطرة.'

بدا الرجال متعاطفين. أدركت أنني أقنعتُهم. منحتُهم أعرض ابتساماتي.

'هل لي أن أطمع بمساعدتكم لي في دفع السيارة إلى العبارة؟'

تبادل الرجال النظرات، أحدهم هز كتفيه ودار نحوي قائلاً: 'لك ما تريد بالتأكيد.'

رافقني ثلاثة منهم إلى سيارة الأودي. تطلَّبَتْ العملية جهداً كبيراً، غير أننا استطعنا، آخر المطاف، أن ندفع السيارة - وهي المحشوة بالمتفجرات، الرشاشات، الذخائر، والعملات المهربة (المزورة) - إلى قلب العبّارة. كنت أضحك بيني وبين نفسي كل الوقت. ما أكثر ما كانت الشرطة المغربية قد عَذَّبَتْني لسنوات طويلة! ألم يكن من العدل أن تمد لي الآن يد المساعدة؟!

ما إن أصبحتْ السيارة على ظهر العبّارة. حتى صعدت إلى قمرة الركاب. جلست ودخنت سيجارة فيما كانت العبارة تبحر مبتعدة عن الرصيف. طلبت كأساً من الويسكي، كأساً آخر. كنت أعرف أن المكان كان زاخراً بعناصر الأمن السريين المكلفين بمراقبة الجميع. أردت أن أثبت لهم أنني لم أكن أصولياً متطرفاً؛ لم أكن سوى زبون عادي عائد لزيارة أهله.

غير أنني كنت أيضاً بحاجة إلى كأس بالفعل.

طَنْجة

بعد وصول العبّارة إلى رصيف طنجة، انتظرت خروج جميع السيارات الأخرى أولاً. لم يكن ثمة أي طريقة لتحريك الأودي وإخراجها وحدي، فنظرت من حولي ورأيت مجموعة الرجال نفسها التي كانت قد ساعدتني في ألجزيراس. ذهبت إليهم وسألتهم عما إذا كانوا مستعدين مرة أخرى لمساعدتي. كانوا أقل دفئاً هذه المرة؛ باتوا في المغرب، حيث كانوا يتمتعون بنفوذ حقيقي. غير أن أحدهم اقترح العثور على بعض عمال الرصيف الذين ساعدوني في دفع السيارة وإنزالها عن ظهر القارب.

حين وصلت إلى منطقة الجمارك صُعقْتُ. كان المكان كله مزدحماً بعناصر الشرطة. كانت الشرطة المغربية مسلحة ودائبة على تفتيش السيارات كلها. حتى السياح الأوروبيون الذين كانوا يبحرون عابرين كان يتم إيقافهم. كانت الشرطة تخرج كل شيء من السيارة، قطعة قطعة. رأيت شرطياً يطلب من سيدة بريطانية إخراج رضيعها من السيارة. بدأ الرضيع يزعق، إلا أن الشرطي لم يبالِ بالأمر؛ أمضى، أقله، خمس دقائق وهو ينكش المقعد ويفككه قبل إعادته إلى الأم.

آنذاك لم أستوعب ما كان حاصلاً، إلا أنني ما لبثت أن جمعت أجزاء القصة. كانت الحكومة المغربية المعادية دوماً للتطرف الإسلامي، قد غدت أقسى في خريف 1994 حين كانت جماعة إسلامية متطرفة مرتبطة بالجبهة الإسلامية المسلحة قد أقدمت على قتل اثنين من السياح في أحد فنادق مراكش. والآن، بعد عملية الاختطاف، كانت الحكومة في حالة استنفار شديد. كانت شديدة القلق من احتمال تسرب الجماعة الإسلامية المسلحة وجماعات متطرفة أخرى إلى المغرب. كانت الحكومة تفعل كل شيء تستطيعه لقفل الحدود.

كان حكيم والآخرون قد أرسلوني إلى قلب برميل البارود هذا مع سيارة ملأى بالمتفجرات. كانوا يعرفون بدقة ما كان حاصلاً. الشخص الوحيد الذي كان

لديه شيء من الإحساس بالذنب هو جمال الذي كان قد حاول إرسالي إلى سَبْتة بدلاً من طنجة.

شعرت بالرهبة ولم أكن أعرف ما أستطيع فعله. لم أكن متوفراً على أي حماية هنا في المغرب، لم يكن جيل قادراً على فعل أي شيء إذا ما جرى اعتقالي. لو قلت للسلطات إنني عميل لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي)، لسارع جيل إلى إنكار ذلك. إذا اكتشف الأمن ما كنت أحمله في السيارة، فكان سيعذبني لانتزاع أسماء الناس الذين كنت أعمل معهم. وكان الاحتمال الأقوى هو أنهم كانوا سيقتلونني بعد الحصول على المعلومات.

تعين علي أن أفكر بسرعة. تذكرت الدور الذي كنت ألعبه: سائح عائد إلى الوطن لزيارة الأهل. كان النهار موشكاً على نهايته، كانت سيارتي معطّلة، وأنا مهدود من التعب. لم أكن أريد سوى الوصول إلى طنجة ولقاء الأهل.

بدأت أفكك جميع الأشياء وأخرجها من السيارة لأضعها على الرصيف. البسط، السجاد، الأجهزة الإلكترونية، العلب. بعد قليل اقترب مني موظف جمارك. كان يرتدي زياً رسمياً مزيناً ببعض شارات مهارة الرمي على الكتّافتين. من الواضح أنه كان مسؤولاً رفيع المستوى.

سألني: 'ما الذي تفعله؟'

أجبت: 'أحاول المساعدة. قَدَّرْتُ أن من شأن إخراج كل الأشياء من السيارة أن يسرِّع العملية. أنا الأخير في الصف. أنا بحاجة إلى قَطْر السيارة بعد الخروج من هنا كي أتمكن من الوصول إلى أهلي.'

'وما الخلل في السيارة؟'

نشرتُ ذراعي وأطلقت زفرة قوية تعبيراً عن الخيبة: 'إنها هالكة. إن السيارة ميتة. اشتريتها في بلجيكا متوهماً أنني قادر على بيعها هنا وكسب بعض المال.

غير أنني أجهزت على كل ما معي من مال ثمناً لإصلاحها. ولست واثقاً حتى من قدرتي على إصلاحها بعد الآن. قد أُضطر لبيعها خردة.'

مالَ الضابطُ علي وتكلم بصوت منخفض. قال: 'إذا كان معك أي شيء تريد إخفاءه، يا ولدي، يكفي أن تعطيني مئتي درهم فقط فأسمح لك بالمرور.'

نظرت إلى حَدَقَتي عينيه. غريزياً أدركتُ أن هذا لم يكن إلا اختباراً. مع وجود حشد من ضباط الجمارك العاكفين على نكش كل شيء في السيارات من حولي، لم يكن ثمة أي احتمال لأن يكون هذا الزبون مستعداً لتمريري مقابل رشوة بسيطة. قررت أن أتابع في التمثيل.

'قلت لك قبل قليل. لا أملك أي مال. وها أنت ذا تريدني أن أدفع المزيد لمجرد العبور، أليس كذلك؟ انس الموضوع!' كنت قد قررت اصطناع الغضب بعد الآن. تابعت الكلام: 'أتدري ماذا؟ لماذا لا تأخذ السيارة؟ خذ كل شيء فيها. من شأن ذلك أن يحررني. من شأن ذلك أن يوفر عليَّ قدراً هائلاً من الصداع.'

أومأ المسؤول وابتعد عني. كنت قد مثَّلتُ دَوْري أفضل مما كان هو قد مثَّلَ دَوْره.

لم يكن الأمر قد انتهى بعد. مع ابتعاد المسؤول كانت جماعة قد اقتربت: عنصرا شرطة، جندي مسلح، وموظف جمارك بزي رسمي. كان ثمة رجل آخر بلباس مدني. كان أصغر سناً من الآخرين، وكان يحمل مطرقة ومفك براغي. تقدم نحوي وخاطبني: 'السلام عليكم!' كان وجهه استثنائي الجدِّية.

'عليكم السلام' أجبت.

ثم دار حول السيارة وفتح الغطاء. غمغمت تعبيراً عن الخيبة. سألت: 'هل هذا ضروري حقاً؟' كنت لا أزال أتظاهر بالغضب من السيارة، ومن التأخير. أشرت إلى جميع الأغراض التي كنت قد أنزلتها من السيارة ونشرتها على

الإسفلت. قلت: 'قمت بإنزال كل شيء من السيارة تيسيراً لمعاينتكم. وعم تبحثون بعد كل هذا؟'

رفع رأسه وقال: 'لماذا تسأل؟ هل لديك ما تخفيه؟'

'وما الذي كنت سأخفيه؟'

'لا أدري' قال بابتسامة مصطنعة 'أسلحة، ربما؟'

'تمام، رائع. دعك من هذا الكلام! ومن أكون أنا؟ جيمس بوند؟'

رد غامزاً: 'لا بالطبع؛ أنت لست جيمس بوند. غير انك قد تكون إرهابياً.'

أطلقت ضحكة ساخرة: 'ليتني كنت إرهابياً! لست إلا أحمق خَوْزَقه تاجر سيارات.'

في تلك اللحظة كان يعاين مصفاة الهواء، ناقراً إياها بمطرقته لفتحها. كنت حريصاً على إبعاده عن المحرك.

'أرجوك يا أخي، اتق الله! السيارة معطلة أساساً.' شكوت. ثم تابعت: 'بددت آلاف الدراهم على إصلاح ذلك المحرك وأنت الآن تعطله أكثر؟ هيا حطّمه لي.'

رفع الموظف رأسه ونظر إلي ثم أعاد النظر إلى المصفاة. نقرها بضع مرات أخرى لمجرد إثبات أنه لم يأبه بما قلته، وأنزل الغطاء. ثم جاء لينظر إلى داخل السيارة. ثمة كان كتاب على المقعد الخلفي كنت عاكفاً على قراءته منذ بعض الوقت عن رأي المسلمين بما جاء في سفر الرؤيا. حمله وسألني:

'ما هذا؟'

قلت 'إنه كتاب'. لم أكن قد تعمدت تركه على المقعد الخلفي، غير أنني لم أقلق كثيراً لأنني فعلت. أي إرهابي أبله كان سيسافر مصطحباً كتاباً عن الفكر الرؤيوي الإسلامي؟!

قلّبه وعاين غلافيه. كان يهز رأسه، وكانت تعابير وجهه بالغة الجدية. حدّق في عيني وبدأ يقول: 'هل تصدق هذا كله يا أخ؟'

هَمْهَمْت: 'هل تمزح؟ ما من أحد يصدق كل شيء يقرؤه في الجرائد، أليس كذلك؟'

ابتسم، رمى الكتاب إلى السيارة، ولوّح لي سامحاً لي بالتقدم إلى المخرج قائلاً: 'انقلع من هنا!'

نظر إلي ثم إلى السيارة من جديد. ثم راح ينظر إلى كل حاجياتي المنشورة على الرصيف. 'لا بأس' قال. 'بادر إلى إعادة أشيائك إلى السيارة، وهؤلاء الشباب سيساعدونك على إخراجها من البوابة.' أشار إلى أفراد الشرطة.

أجبته بابتسامة عريضة جداً.

ما إن أنجز أفراد الشرطة مهمة دفع السيارة إلى خارج البوابات وإيقافها على قارعة الطريق، حتى هرعت إلى الموظف الأول الذي كان قد طلب الرشوة. قلت:

'انظر يا أخي، أعرف أنني لم أعطك شيئاً من قبل، ولكن هل لي أن ألتمس مساعدتك الآن؟ أنا بحاجة إلى شخص يراقب سيارتي عند ذهابي للبحث عن قاطرة. سأعطيك مئة درهم.'

وافق الموظف، وأعطيته نصف المبلغ سلفاً. ثم هرعت إلى الشارع بعيداً عن الميناء فوجدتني أمام محل إصلاح سيارات. قلت لصاحب المحل إنني بحاجة لقطر سيارتي وجرها إلى المدينة. وافق الرجل وقفزت إلى قمرة شاحنته التي أعادتنا معاً إلى الأودي. كان الموظف لا يزال واقفاً في مكانه. أعطيته الباقي وساعدني على شَكْل السيارة بالشاحنة.

لم أستطع إلا أن ابتسم بيني وبين نفسي ونحن في الطريق إلى قلب طنجة. شعرت بالامتنان لكل هؤلاء الموظفين المغاربة الذين ساعدوني على تهريب كميات من المتفجرات والرشاشات والذخائر والأوراق النقدية المهربة والمزورة إلى داخل المغرب في زحمة أعلى درجات التدابير الأمنية الممكنة.

كان حكيم قد أمرني بأن أتوجه مباشرةً إلى بيت مليكة، إحدى بنات عمومتنا البعيدات، فور وصولي إلى طنجة. كان قد رتب لي موضوع الإقامة معها. كان لديها جهاز فاكس، جهازي راديو سي بي، وجهاز تصوير وشريط فيديو كان يتعين علي أن أضعها في السيارة قبل تسليمها.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت مليكة سوى مرة واحدة، حين كنا، كلينا طفلين، ومنذ ذلك الوقت كنت قد سمعت من أمي أنها كانت قد تزوجت سافلاً. ما إن وصلت إلى البيت حتى ساعدتني في إنزال كل شيء من السيارة والمقطورة. معظم الأشياء كانت لها هي، مكافأة لها على تخزين الأجهزة الإلكترونية. وبعد إفراغ السيارة رأيت عدداً من الصبية يلهون في الشارع. أعطيت كلاً منهم بضعة دراهم فساعدوني في دفع السيارة وإدخالها إلى الكراج.

كانت مليكة لا تزال فتاة عذبة، ضئيلة الجسم، ذات بشرة ناعمة وعينين سوداوين واسعتين. لاطفتْني كثيراً وقدمتْ لي الطعام. لم أكن أعرفها فلم أجرؤ على سؤالها عن حياتها الشخصية، هي أيضاً لم تفعل بالمقابل.

بعد الانتهاء من تناول الطعام سألتُ عن الأجهزة فأخذتني إلى خَزْنة في المطبخ حيث كان جهاز الراديو. قلت: 'عظيم. أين هما جهازا الفاكس وشريط الفيديو؟'

أطْرَقَتْ ونظرتْ إلى الأرض وهي تهز كتفيها بلطف قائلة: 'ليسا عندي.'

شعرتُ بالارتباك. 'لماذا؟'

نظرتْ إليَّ دون أن تقول شيئاً. عيناها كانتا واسعتين وبريئتين إلا أنني لاحظتُ أنهما بدأتا تغرورقان بالدمع. وفيما يشبه الهمس قالت: 'رهنهما للحصول على ما يشتري به مخدِّراً.'

يا للهول! 'هل تعرفين محل الرهن؟' لم يكن ثمة وقت يمكن تبديده، فحكيم والآخرون كانوا يلحون علي طالبين مني أن أتحرر من هذه السيارة بسرعة.

هزت برأسها وقالت: 'لا أعرف. ولكنه سيعود غداً، ويستطيع هو أن يدلَّك.'

لاحقاً ذلك المساء اتصلت بالرقم الخليوي الذي كان حكيم قد زوّدني به. جاء الرد من ياسين أفدته بأنني كنت قد وصلت إلى المغرب مع السيارة، وبدا بالغ السرور. غير أنه كان منزعجاً لأن زبوني لم يكن قد وصل بعد إلى طنجة. فسّر لي أن سبب التأخير تمثل بالتعقيد على الحدود الجزائرية وأكد أنه كان سيصل في اليوم التالي. شعرت بالارتياح لأن الوقت اللازم لاستعادة البضاعة من محل الرهن بات متوفراً.

لم أُطْلع ياسين على ما كان قد حصل لجهاز الفاكس وشريط الفيديو لأنني لم أكن أريد أن أتسبب بأي مشكلة لمليكة.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي فوجئت باختفاء حذائي. كنتُ قد خلعتُه قبل دخول البيت وتركته خارج الباب. خَوْزَقوني. كان حذاء جلدياً فاخراً باهظ الثمن.

دخلت غرفة الجلوس. كان رجل جالساً على السرير. عيناه كانتا بقعتي دم، وبدا بالغ القذارة. شممت رائحته مع وصولي إلى الباب.

سألته: 'هل رأيت حذائي؟' اكتفى بالابتسام. رفعت صوتي: 'هل أخذت حذائي؟' بقي صامتاً.

لم يكن لدي وقت لهذا، فسلّمت بالأمر قائلاً: 'لا بأس. يكفي أن تزوّدوني بأي شيء أنتعله. يمكنك الاحتفاظ بالحذاء شرط إخباري عمن أعطيته جهاز الفاكس وشريط الفيديو.'

هز كتفيه واضطجع مسنداً ظهره إلى السرير وهو ينشر ابتسامته البلهاء على وجهه. ثم أعطاني اسم محل الرهن وأشار إلى بوط رياضة على الأرض. انتعلت البوط وهرعت إلى المحل. كنت هناك في غضون خمس دقائق. أمسكت بصاحب المحل من ذراعه وحَدَّقت في عينيه. أفهمته أنني عازم على استرجاع جهاز الفاكس وشريط الفيديو. أدرك على الفور ما كنت بصدده.

قال: 'جهاز الفاكس موجود عندي هنا' مشيراً إلى الرف.

سألت: 'وماذا عن شريط الفيديو؟' بقي الرجل صامتاً. شدَّدْتُ قبضتي على ذراعه وقلت: 'اسمع، أنا متأكد من أن شريط الفيديو عندك. أين هو؟'

تمتم متلعثماً: 'ليس عندي أيها الأخ'

'أين هو إذن؟ ماذا فعلت به؟'

بدا الرجل مذعوراً. كنت ممسكاً بذراعه بقوة، وكان وجهي قريباً من وجهه. راح يتمتم: 'كان شريط الفيديو عندي. شاهدتُه. كان فلماً عظيماً؛ جعلني فخوراً بما يقوم به الإخوة في الجزائر. أعرته لصديق ليستمتع بمشاهدته.'

لم أستطع تصديق ما كنت أسمعه. إن حيازة أي فلم دعائي في المغرب في تلك الأيام كانت مغامرة أخطر من أن يتصورها المرء. أما الآن فإن عناصر الأمن كانوا موجودين في كل مكان بحثاً عن أي دليل على التطرف. من المؤكد أن هذا الزبون غبي غباء لا يصدق، بقناعتي.

شدَدْتُه إليّ وقلت: 'هات لي ذلك الشريط. إذا أعدته في غضون نصف ساعة سأعطيك خمس مئة درهم. إذا لم تفعل فسوف أسلّمك إلى الشرطة.'

خاف الرجل كثيراً. خرج من المحل بسرعة البرق. عاد بعد نحو عشرين دقيقة ومعه الشريط. لوى عنقه واعتذر. أعطيته المبلغ الذي وعدته به ومشيت.

جلست على مسافة بضع مئات من الأمتار عن المحل ووضعت جهاز الفاكس جانباً. حملت شريط الفيديو بين يدي. لم يكن الحصول على هذه الأشرطة سهلاً. على الرغم من أن التصوير تم في الجزائر، فإن الفلم كان لابد من إرساله إلى أوروبا لتحريره وطبعه. والعمل بعد ذلك على تهريبه إلى أفريقيا لإعادته إلى الجزائر، حيث كانت الأشرطة تُوظَّف للدعاية والتجنيد. كانت هذه تجارة شديدة الخطر.

بدأت أسحب الشريط الأسود من الفتحة ـ شريط بطول عشرات الأمتار. فرمته نتفاً صغيرة.

لم يكن لدي أي فكرة عمن كان قد رآه. قد يكون أي شخص. كانت الشرطة عاكفة على تكنيس البلاد لاجتثاث الإسلاميين، وكانت على الدوام ستجد أناساً راغبين في الكلام. لو أن أحداً قام بربط هذا الشريط بمليكة، لكان مصيرها السجن. وبالتالي فقد تعين عليّ أن أجهز عليه، أن أخربه تماماً. كان الشريط خطراً جداً علينا جميعاً.

السينما

في اليوم التالي اتصلت بياسين من جديد. أبلغني بأن الزبون كان سيصل في الثامنة من ذلك المساء، وطلب مني اختيار مكان للقاء. قلت له إنني سأكون أمام سينما باريس مدخِّناً باستمرار. كان الزبون يستطيع أن يتعرف عليَّ بهذه الطريقة (طريقة التدخين المتواصل).

وصلت إلى السينما في الثامنة تماماً. كنت متوتراً بعض الشيء سلفاً بسبب الشريط. المدينة كلها بدت أيضاً متوترة. دوريات مسلحة كانت تجوب الشوارع.

كنت قد أمضيت عدداً من السنوات في المغرب هارباً من الشرطة. وحين غادرت قبل سنة، ظننت أنني كنت قد خَلَّفْت كل شيء ورائي.

بقيت واقفاً أمام السينما أكثر من ساعة، مدخناً السيجارة بعد الأخرى. لم يقترب مني أحد. أجهزت على "الباكيت". أصبحت في حيرة من أمري. تسارعت دقات قلبي. بدأتُ أفكر بالاحتمالات المرعبة. ربما كان هذا الزبون أحد عملاء الجهاز السري المغربي وكان يعايننني أو يختبرني. وقد يكون أمين وياسين قد عرف أنني خُنْتُهم وقررا تعريضي للقتل.

لم أكن قادراً على متابعة الانتظار. زاد توتري؛ صرت أشعر كما لو كان كل شرطي عابر محدِّقاً فيّ أنا. كان لابد لي من أن أفعل شيئاً، فاهتديت إلى كوة هاتف واتصلت بياسين.

ما إن رفع السماعة حتى بادرته: 'ما الذي يجري؟ لم يظهر أحد.'

'إنه هناك' قال ياسين. 'لقد مر بالسينما ولكنه لم يرك.'

'يا للغرابة!' قلت. 'أنا الشخص الوحيد الواقف أمام السينما والذي يدخن دون توقف.'

'هيا عد إلى المكان وانتظر. سأتصل به وأبلغه بأنك هناك.'

اشتريت علبة دخان أخرى وعدت إلى مكاني السابق أمام السينما. بقيت واقفاً مدة خمس وأربعين دقيقة أخرى. لا أحد. بدأت يداي ترتجفان. تملّكني الغضب. مشيت إلى كوة الهاتف؛ عاودت الاتصال بياسين.

'أوكي، قل فقط كيف يبدو. صِفْه لي. سأهتدي أنا إليه إذا كان هو عاجزاً عن الاهتداء إليّ'

رد ياسين: 'لا أستطيع وصفه.' كنت أعرف لماذا: كان يخشى من أن يكون خطه مراقباً فيكشف هوية زبونه.

لم أبالِ بالأمر. قلت له: 'اسمع ما أقوله لك: إما أن تصفه لي، أو أبادر أنا إلى نسيان الصفقة كلها. لن يحصل على السيارة أبداً.'

'لا أستطيع إعطاءك الأوصاف. أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.'

'إذن سأحتفظ بالسيارة.'

أخيراً أذعن ياسين. كان يعرف أنني عنيد وقد أقرر الاحتفاظ بالسيارة.

'أوكي، موافق. إنه قصير القامة، نحو 165 سنتيمتراً. مائل إلى الصَّلَع. له لحية بيضاء.'

أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها ومشيت نحو السينما. على مسافة نحو 150 متراً عن المدخل، رأيت رجلاً ينطبق عليه الوصف الذي زوّدَني به ياسين للتو. لدى اقترابي أكثر أدركت طبيعة المشكلة: لم يكن الرجل يدرك ماهية المهمة التي كان ينفذها. كان عجوزاً في أواخر ستينياته. ومن جلبابه استطعت أن أستنتج أنه كان مغربياً. كان واقفاً ببساطة على الرصيف متلفتاً حوله بلا هدف. لم يكن يحمل أي دليل.

اقتربت منه لَفَفْتُه بذراعيّ ورحت أقبله على الوجنتين. قلت: 'ما أسعدني برؤيتك! آسف جداً أنني لم أهتد إليك من قبل. ما أكثر ما بحثت عنك...'

حدّق الرجل فيَّ مرتبكاً. انقضضت على ذراعه وجررته معي. تابعت الكلام معه بصوت مرتفع كل الوقت. 'كيف حال الأولاد؟' ثم بصوت أنعم: 'معي هدية لك. جلبتها من بلجيكا هل تعرف من أرسلها؟'

دُرْت لأنظر إليه، رد علي بنظرة. بدا متوتر الأعصاب.

قال: 'أمين وياسين'. كان صوته يرتجف قليلاً.

أومأت برأسي. بعد ذلك، مشينا لبضع دقائق أخرى. واصلت الكلام، كما لو كنا صديقين قديمين خارجين إلى مشوار.

أخيراً سأل: 'أين هي الهدية، إذن؟'

قلت: 'اطمئن. إنها في مكان آمن. سنستلمها غداً. بعد تسجيل السيارة ودفع الرسم.'

وقف الرجل حيث كان ونظر إلي قائلاً: 'لا يا أخ، لسنا بحاجة إلى ذلك.'

'بل نحن بحاجة، من الطبيعي أن نكون.' كانت السيارة مسجلة باسمي أنا في المغرب. فحين كانت أي سيارة أجنبية تدخل البلاد، كانت السلطات الجمركية تسجلها في بنك معلوماتها. والطريقة الوحيدة لشطب اسمي من السجل تمثل ببيع السيارة إلى شخص آخر. أما إذا لم أفعل فكنت سأبقى مسؤولاً عما يحدث للسيارة كما عن كل ما فيها. وكان وارداً جداً أن أُسأَل عنها أيضاً لدى خروجي من المغرب، إذن كان من المحتمل أن تحاول السلطات معرفة ما قد فعلته بالسيارة التي كنت قد أدخلتها.

شرحت هذا كله للعجوز، وحاول هو أن يطمئنني. 'لا تخف يا أخ. لدينا عميل على الحدود. قام بشطب الملف من الكمبيوتر وانتهى. لن يحصل شيء.'

لم أصدقه. لم أكن واثقاً بأمين وياسين. لم ينبهاني إلى مدى دقَّة الإجراءات الأمنية في المغرب، ومن الواضح أنهما لم يكونا يباليان بما كان محتملاً أن يحصل لي بعد أن أصبحت هنا. وأنا أفكر بالأمر أدركت أن من شأن عدم عودتي إلى بلجيكا أن يكون مناسباً جداً بالنسبة إليهما. كانا قد حصلا مني على ما كانا بحاجة إليه: باتا يعرفان عنوان لوران، وقادران بسهولة على بدء التعامل المباشر معه. أضف إلى ذلك أنهما لم يسبق لهما أن وثقا بي قط. والآن على نحوٍ خاص، بعد أن أصبحت على مستوى الكلام معهما عن السمتكس والصواعق، ربما بات أسهل بما لا يقاس أن يتم الخلاص مني.

حَدَّقْت في العجوز وسألت بتحدٍّ: 'وما الذي يجعلني أن أثق بك؟ كنت واقفاً في الساحة لساعات وأنت تنتظرني. اسمعني جيداً، أنا لا أمزح. لن أسلمك السيارة دون إنجاز المعاملة.'

بدا مرعوباً: 'لا أعرف ما سأقوله. سيتعين عليك أن تتفق مع الأخوين.'

تركته حيث هو وذهبت إلى كوة الهاتف للاتصال بياسين. ما إن رفع السماعة حتى كررت الإنذار الذي كنت قد وجهته إلى زبونه. لا سيارة بلا أوراق رسمية. حاول ياسين إقناعي وطمأنتي؛ حاول أن يقول إن عليّ أن أصدق العجوز وأثق بكلامه. كان ثمة زبون يتولى الاهتمام بمثل هذه الأمور على الحدود. ذكّرني بأننا كنا في عجلة من أمرنا، وبأننا كنا قد ضيعنا كثيراً من الوقت.

لم أكن مستعداً لشراء أي شي من تلك البضاعة. كنت حازماً. قلت: 'أنا جاد. إما أن يدفع الرسم ويسجل السيارة باسمه، أو لا أسلمه إياها.'

مرة أخرى وجد ياسين نفسه في مأزق. بعد فترة صمت طويلة، قال: 'أوكي، لا بأس، سنرى ما نستطيع فعله. عاودْ الاتصال غداً صباحاً.'

عندما تحدثت مع ياسين صباح اليوم التالي، بدا لي بائساً. قال: 'نَفَّذنا طلباتك. معه المبلغ، سيقوم بإنجاز المعاملة وسيسلمك الأوراق. وتستطيع أنت أن تسلمه السيارة.'

لم يكن قد سبق لي أن سمعت ياسين وهو يتكلم بهذه النبرة. بدا حزيناً، يائساً.

تابع كلامه قائلاً: 'اعلم أننا نسوق هذا الرجل إلى حتفه عملياً.' وكان ياسين على صواب بالطبع. من الواضح أن هذا الزبون لم يكن أحد مجندي الجماعة الإسلامية المسلحة؛ كان مجرد تاجر أو مهرب. لم يكن سيفعل أي شيء بالسيارة أو بحشوتها. غير أن ورود اسمه في الأوراق كان من شأنه أن يجعله مسؤولاً عن

كل ما قد يحصل للسيارة حتى بعد تنازله عنها. كنت واقفاً على الوضع تماماً: لم يكن العجوز قد اتفق سوى على عملية استلام وتسليم سريعة. لم يخطر بباله قط أن يصبح منخرطاً في الحرب الدائرة.

لم يتوقف ياسين عن ممارسة الضغط. من الواضح أن العجوز كان عنصراً بالغ الأهمية بالنسبة إليه. قال: 'إنه يخاطر بحياته كما تعلم. ربما بمصير عائلته أيضاً. بله حلقات مسلسل التموين والإمداد كلها.'

كان الكيل قد طفح معي - أنا أيضاً لم أكن منخرطاً في حربهم. قلت: 'اسمع جيداً. تلك ليست مشكلتي. هاتوا لي الأوراق ونقطة على السطر.' وقطعت الخط.

التقيت العجوز في وقت لاحق من ذلك اليوم. عندما سألته عما إذا كان جاء بالمال، أومأ وقال: 'نعم. المال معي.' تكلم مثل الأموات. عيناه كانتا خاليتان تماماً من أي تعبير أو معنى؛ فقط كان ينظر أمامه محدِّقاً. 'دعنا نذهب وندفع الرسوم وننهي المعاملة.'

هبط قلبي وأنا أنظر إليه. حاولت أن أتصور حالة عائلته، مدى ما كان يمكن أن تعانيه إذا ما حُرِمَتْ منه. تصورت الشرطة في المغرب، كيف كانت تعذب المتطرفين والمخربين وتعدمهم. كنت معجباً بالعجوز. كان مستعداً لتسجيل السيارة باسمه مهما كان الثمن. كان مؤمناً بما كان يفعله.

وضعت يدي برفق على كتفه: 'انس الموضوع يا أخ. لا تقلق بشأن الأوراق.' لم أستطع السير إلى نهاية الطريق. كنت عاجزاً عن توريط هذا العجوز العذب. أخرجت المبلغ الباقي من النفقات وأعطيته إياه أيضاً.

حَدَّق في وجهي غير مصدِّق. أظن أنه كان يتوقع مني أن أبادر إلى إنكار ما كنت قد قلته. وحين لم أفعل، اتسعت عيناه وانتشرت ابتسامة عريضة على وجهه. رددت عليه بابتسامة مماثلة.

مشيت معه إلى الشارع الذي كنت قد تركت فيه السيارة. في وقت أبكر صباح ذلك اليوم كنت قد أخرجتها دفعاً من الكراج بمساعدة بعض الصبية من الجيران. لم أكن أريد أن يعرف العجوز أو أيٌّ ممن كانوا معه أيَّ شيء عني أنا أو عن ابنة عمي مليكة. أفهمته أن محرك السيارة كان هالكاً وكان سيتعين عليه أن يهتدي إلى ميكانيكي. أومأ العجوز برأسه؛ من الواضح أنه كان يعرف الحقيقة سلفاً. حين أصبحنا أمام السيارة، ناولته المفاتيح.

قلت: 'السلام عليكم'

انحنى قليلاً ورد: 'وعليكم السلام!'

مشيت بضع مئات من الأمتار، جلست في أحد المقاهي لأدخن وأرتخي. غير أنني بقيت مشغول البال بالعجوز. كنت شديد الرغبة في الاطمئنان إلى تمكنه من تحريك السيارة بأمان. لذا وجدتني عائداً إلى المكان الذي كنت قد تركته فيه قبل دقائق قليلة جداً. كانت السيارة قد اختفت.

مباشرة اتصلت وتركت رسالة لجيل أبلغته فيها بأنني كنت قد سَلَّمْتُ السيارة. عاود الاتصال فوراً وسألني عن موعد عودتي إلى بلجيكا. أفدته بأن الأمر قد يستغرق بضعة أسابيع لعدم توفري على التأشيرة التي تمكنني من دخول بلجيكا. طلب مني أن أعود بالسرعة الممكنة.

ثم اتصلت مع ياسين الذي بدا بالغ السعادة واستثنائي الاعتزاز بي وبما أنجزته من مأثرة إذ قال: 'ما شاء الله! ما شاء الله!' وبعد ذلك شكرني على إعفاء العجوز من مسؤولية توقيع الأوراق الخاصة بالسيارة.

قلت له إنني كنت بحاجة إلى مبالغ لشراء بطاقة العودة لأنني كنت قد دفعت كل ما كان معي إلى العجوز. وَعَد ياسين بتزويدي بها بسرعة، في غضون أسبوعين. قمت باستغلال الوقت لتجميع أوراقي وتقديم طلب الحصول على

إجازة السوق. كان هناك شخص في السفارة، صديق قديم لأبي، قادر على مساعدتي بشأن التأشيرة (الفيزا).

اتصلت بياسين مرة أخرى بعد أسبوعين. أفاد بأنه لم يكن بعد قد استطاع تأمين المبلغ، وبأن عليَّ أن أبقى في طنجة وأنتظر. كنت أعرف أنه كان يكذب، بالطبع. كنت قد عشت عاماً كاملاً مع هذه النوعية من البشر؛ كنت أعرف أن لديهم أكواماً مكدَّسة من المال. كنت أعرف أنني على صواب ـ لم يكونوا يريدون أن أعود إلى بلجيكا.

شيئان اثنان حدثا مع نهاية كانون الثاني/يناير. حصلت على إجازتي الأولى للسوق. وقامت الجماعة الإسلامية المسلحة بتفجير سيارة مفخخة في مركز مدينة الجزائر. كانت الشوارع ملأى بالناس المستعدين لاستقبال رمضان الذي كان اليوم التالي أول أيامه. قتل ما لا يقل عن أربعين شخصاً، جُرح المئات، أكثرهم من النساء والأطفال.

لا أعلم ما إذا كانت المتفجرات التي نقلتها قد استُخدمت في حادثة التفجير تلك. ولن أعلم الحقيقة أبداً ـ فللجماعة، بالطبع، أعداد كبيرة من المونين. غير أنني بقيت متذكراً كم كانت الرحلة مستعجلة بإلحاح. لن أنسى طريقة حكيم في تعنيفي، والخيبة الجلية في صوت ياسين حين هددت بعدم تسليم السيارة. لن أنسى السرعة التي تحلى بها الميكانيكي في إبدال محرك السيارة في بروكسل. هل كان كل شيء موقتاً لهذا الهجوم؟

لن أعرف الحقيقة أبداً، ولكن السؤال مازال يؤرقني.

تيري

رغم حلول منتصف شباط/فبراير لم يكن ياسين قد أرسل المبلغ بعد. كنت شديد الرغبة في الخروج من المغرب، فاتصلت بجيل. هذه المرة لم يتعين علي أن

أترك رسالة؛ رفع السماعة بنفسه. بدا مسروراً بسماع صوتي، تواقاً. سأل: 'أين أنت؟ متى ستعود؟'

'مازلت في المغرب. أنا مفلس. يستمر ياسين في إطلاق الوعود ولكن شيئاً لا يصل.'

أفادني جيل بأنه كان سيزوِّدني بالمال مباشرة، وأضاف: 'عد بأقصى سرعة ممكنة.'

وصل المبلغ في اليوم التالي. ألفان من الدولارات المحولة برقياً. كان المبلغ أكبر بكثير من أي مبلغ سبق لجيل أن كان قد زوَّدني به.

استغرقت عملية الفيزا أسبوعاً آخر. ثم قطعت تذكرة سفري بالحافلة إلى بلجيكا.

كانت الشمس موشكة على الغروب حين وصلت إلى الميناء. كان كل من البحر والسماء متألقين باللونين الأحمر والوردي. حين تكيفَتْ عيناني ونظرتُ إلى صف السيارات والناس المتطاول انتظاراً للصعود إلى العبّارة، دُهشت. بدت التدابير الأمنية أشد صرامة حتى مما كانت قبل شهر حين دخلت البلاد. ثمة كان رجال شرطة في كل مكان، وعلى مسافة كل بضعة أمتار كان هناك جنود شهروا بنادقهم ورشاشاتهم من طراز ام بي - 5 (MP5) تصورت أنهم يبحثون عني. لقد اكتشفوا أن لي علاقة بالسيارة المفخخة المتفجرة في مدينة الجزائر وهم الآن يبحثون عني.

كانت الحافلة قد أنزلتني عند بوابة الدخول إلى رصيف الصعود إلى العبّارة، غير أن المرء كان عليه أن يمشي مسافة لا تقل عن كيلومترين للوصول إلى نقطتَيْ الجمارك والجوازات. مشيت مِشْية وسطاً بين البطء والسرعة، مركزاً نظراتي على الأمام. أبقيت وجهي هادئاً، ولكن قلبي كان يهدر داخل

صدري. ما لبثت أن أحسست بشفتي متحركتين داعيتين ومسبِّحتين تماماً مثل جمال أو حكيم.

كانت الشمسشديدة القرب من الأفق وساطعة جداً إلى درجة أنها وَخَزَتْ عيني. كانت تنعكس عن ظهور السيارات، وتنشر الذهب على كل الاتجاهات. شعرت بدوار. راح عقلي يدوّم. كررت الصلوات والأدعية عشرات المرات متوسلاً الرب ألا تقوم الشرطة بسحبي من الصف واعتقالي. كنت أعرف الشرطة في المغرب. كنت أعرف ما كان سيحصل لي إذا ما اعتُقلت.

'تابعْ المَشْيَ!' قلت لنفسي. 'امشِ في خط مستقيم. لا تلتفتْ يميناً، لا تلتفتْ يساراً. امشِ فقط في خط مستقيم!' ركزت انتباهي على وقع خطواتي، أغمضت عيني نصف إغماضة لأطرد الذهب المالئ للمكان من رأسي. 'امش في خط مستقيم! تابع المشي.'

مع اقترابي من نقطة مراقبة الجوازات تباطأ قلبي. أصبحت شبه مستقيل. كنت واثقاً من أنهم إذا ما اعتقلوني فقد كانوا سيكتشفون قصة السيارة وجميع الأشياء ذات العلاقة بها. كانوا سيقومون بتعذيبي إلى أن أطلعهم على كل ما كنت أعرفه. كنت أعلم أن من شأن حياتي أن تكون قد انتهت إذا ما جرى إلقاء القبض علي.

ثم ما لبثتُ أن شعرت بالانفراج. لم تكن تلك سوى مشيئة الله. كنت بين يديه تعالى الآن. كنت سأسلم نفسي إليه سبحانه.

توقفت أمام الكوة وسلَّمت جواز سفري إلى الموظف. كنت هادئاً، وبادرته بابتسامة خفيفة. نظر إليَّ نظرة خاطفة، ثم عاين جواز سفري. دَرَسْتُه. كان أسمر البشرة مع قليل من الشعر على وجهه. شارب كثيف كان يغطي شفته العليا.

رفع رأسه. سألني:

'لماذا أنت ذاهب إلى بلجيكا؟'

بقي صوتي هادئاً. 'أمي مقيمة هناك. ذاهب أنا لزيارتها.'

أومأ وراح يعاين الجواز من جديد. ثم ختم جواز السفر وأعاده إلي قائلاً: 'رحلة سعيدة!'

كنت ضعيفاً لدى عودتي إلى بروكسل؛ شعرت بنوع من البرودة تتملكني. ما إن نزلت من الحافلة حتى اتصلت بجيل. من جديد رفع سماعة الهاتف بنفسه مباشرة؛ لم يكن ثمة أي جهاز رد آلي. طلب مني أن آخذ قسطاً من النوم، ثم نلتقي صباح اليوم التالي.

اتصلت بالبيت بعد ذلك، جاء حكيم ليقلّني. ابتسم حين رآني. قال: 'ما شاء الله! ما شاء الله! أنا فخور بك.' لم يكن قد سبق لي في حياتي كلها أن سمعت منه مثل هذا الكلام.

حين وصلت إلى البيت، وجدت كلاً من أمين وياسين مشغولين بتناول العشاء. انتصب الاثنان واقفين للترحيب. كانا أيضاً يبتسمان ويرددان عبارة: 'ما شاء الله! ما شاء الله! 'ما شاء الله!'

كان الجميع في مزاج جيد. حدّق أمين في وجهي وقال: 'اعلم أن الجميع في الجزائر يتحدثون عن هذا. لا أحد يستطيع أن يصدق أنك كنت قادراً على تحقيق مثل هذا الإنجاز. أكاد لا أصدق.'

سألته: 'لماذا؟'

'نقاط الحدود محكمة جداً. من شبه المستحيل إدخال أي شيء. ما من أحد من شأنه أن يبدي استعداداً ولو لمجرد أن يحاول.' صمتُّ لبرهة. 'لا أعتقد أنني، أنا نفسي، كنت قادراً على تحقيق مثل هذا الإنجاز.'

حَدَّقْت في بؤبؤ عينه وقلت مبتسماً، ولكن مع قدرٍ واضح من الغضب في نبرة صوتي: 'إذن لماذا أرسلتموني؟'

التقط نظراتي وراح يتكلم ببطء: 'لأنني كنت أعرف أنك الوحيد القادر على مثل هذا الإنجاز.'

بقيت نظراتنا متشابكة مدة بدت بضع دقائق. أخيراً أقدم ياسين على كسر جليد الصمت حين التفت إليّ وقال: 'أريد منك أن تتصل بلوران غداً. نريد شراء بعض الصواعق.'

حين التقيت جيل في اليوم التالي، علمت من البداية أن شيئاً كان مختلفاً. التقينا كعادتنا، وقد تبعته. غير أننا، بدلاً من التوجه إلى ساحة روجيه كما درجنا من قبل، مشينا في اتجاه آخر. مررنا بحديقة النباتات لنصل إلى فندق قريب من ساحة مادو. الفندق أيضاً كان مختلفاً: رخيص، مهلهل. مختلف كلياً عن الفنادق الفاخرة التي كنا نلتقي فيها من قبل.

لم يقم جيل بتفسير أي شيء، وأنا لم أسأل. بادر إلى التقاط الحديث من النقطة التي تركناه فيها قبل ذهابي إلى المغرب. أفدته بأن ياسين كان يبحث عن سمتكس وصواعق من جديد بدا مرعوباً.

سأل: 'هل تعتقد أنهم عازمون على شن أي هجمات داخل أوروبا؟ هل قال أمين والآخرون أي شيء من هذا القبيل؟'

لم أكن قد سمعت بأي شيء من هذا، وقلت ذلك لجيل. ثم طرح عليّ سلسلة طويلة من الأسئلة حول المغرب. أين تركت السيارة؟ كيف التقيت الزبون؟ كان استثنائي الاهتمام بمعرفة هوية الزبون، غير أنني لم أكن مستعداً لإبلاغه. كنت قد خاطرت كثيراً لحماية العجوز، ولم أكن مستعداً للغدر به الآن.

سألني جيل: 'هل تستطيع أن تصفه لي؟'

'لا أذكر.'

'كيف لا تتذكر مواصفاته؟ هل أنت عاجز حقاً عن إعطائي أي معلومة عنه؟'

'كان أقصر مني، ربما بطول 170 سم. عجوز طاعن في السن.'

أحجم جيل عن التعليق. درج على عدم قول أي شيء لدى امتناعي عن إعطائه المعلومات المطلوبة. اكتفى بالتحديق في وجهي، بنظرات جامدة، خالية من المعنى.

حين وقفت استعداداً للمغادرة قال لي إن علينا أن نلتقي ثانية في اليوم التالي، في ساعة متأخرة من بعد الظهر. كان سينتظر في مكان قريب من القنصلية الأمريكية.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي، وجدتني في حالة أسوأ. كنت أشعر بدوار في رأسي وبدت أطرافي ثقيلة. غير أنني ذهبت إلى القنصلية الأمريكية بعد الظهر كما كنا قد اتفقنا. مشيت خلف جيل مدة طويلة، أطول من المعتاد. مشينا نحو ساعة، قاطعين المسافة إلى بوابة النامور كلها. كنت شديد التوعك إلى درجة أحسست معها بأننا قطعنا ثلاثة أضعاف المسافة.

عند أحد المنعطفات انحنيت أمام أحد المخازن لربط حذائي. لم أكن بحاجة؛ كان الحذاء مربوطاً وعلى أتم وضع. حين نظرت في مرآة الواجهة، رأيت رجلاً ماشياً خلفي على مسافة بضع خطوات. تذكرته. ما إن رآني منحنياً حتى رفع جريدته ليغطي بها وجهه وتابع المشي. ضحكت بيني وبين نفسي.

وحين التقيت جيل أخيراً أمام أحد الفنادق، قلت له همساً:

'أتعلم يا جيل. أعتقد أن هناك من يتعقبنا.'

انتفض ونظر إلي سائلاً: 'حقاً؟'

obeikandl.com

'نعم أظن ذلك.'

لم يقل جيل شيئاً عن الموضوع، بل سارع إلى تغيير منحى الكلام. قال: 'سنلتقي صديقاً لي اليوم. إنه من هنا، من بروكسل. يمكنك أن تطمئن تماماً. إنه صديق. سنتحدث معه قليلاً.'

أومأت ثم سار أمامي في الشارع. ثمة كان حشد كبير من المارة المشاة، إلا أنني ما لبثت أن رأيت على بعد نحو خمسين متراً الرجل الذي كان يتبعني نفسه.

التفتُّ إلى جيل وطلبت منه أن ينظر إلى حامل الجريدة: 'هل ذلك هو صديقك بالمناسبة؟'

فوجئ جيل: 'كيف عرفت ذلك؟ هل تعرفه؟'

كبتُّ ضحكة وقلت: 'لا، بالطبع لا. فقط قدرت. لم يسبق لي أن رأيته قط.'

بالطبع كنت قد رأيته من قبل. كان قد تعقبني في المرة الأولى التي اجتمعت فيها مع جيل. اعتقدت أنه لم يكن إلا واحداً من زبانية جيل وأشباحه.

نحن الثلاثة ركبنا سيارة كانت واقفة في مكان قريب، وبادر جيل إلى تقديم الرجل بوصفه تيري. وتيري هذا بدا منفعلاً للقائي، كما بدا لي جيل فخوراً بتقديم أحدنا إلى الآخر. كان بشوشاً وأكثر انتصاباً مما هو مألوف في جلسته.

ابتعدنا كثيراً عن مركز المدينة وجلسنا في مقهى فارغ. أخرج تيري بعض الصور من حقيبته ونشرها على الطاولة. لم يكن ثمة كثيرون، وكنت قد رأيت جميع الوجوه من قبل. بأكثريتها كانت الصور صور أمين، ياسين، حكيم، وطارق، ولكن مع بعض الرجال الذين كنت قد شاهدتهم يترددون على البيت. ثمة كانت صورة لي أنا مع نبيل أيضاً. التفتُّ إلى جيل وسألت بغضب: 'ما هذا بحق الشيطان والجحيم؟ سبق لنا أن تكلمنا عن الأمر. هذا نبيل. ليست له أي علاقة بالأمر.'

استقام جيل في جلسته: 'لا، بالتأكيد لا، بالطبع لا. تلك الصورة يجب ألا تكون هنا.' نبه تيري بإشارة تحذير لطيفة بسبابته وأمره بالتخلص منها.

سألني تيري فيضاً من الأسئلة. هل تعرف هذا الزبون؟ هل تعرف ذلك الأخ؟ إلى أين أخذ هذا الشخص السيارة؟ من أين جاء ذلك الزبون؟ كان قد سبق لي أن أجبت على كل هذه الأسئلة من قبل مع جيل، ولكن الأخير لم يكن يقول شيئاً.

فجأة، أدركت ما كان حاصلاً، قاطعت تيري 'أنتم تخططون لاعتقالهم، أليس كذلك؟'

قام تيري وجيل بتبادل النظرات السريعة ثم قال الأول: 'لا، ليس ذلك ما نحن عازمون على فعله.'

غير أنني عرفت أنهم كانوا سيفعلون. أدركت أن جيل كان يتعاون مع تيري من البداية، وأن الأخير كان يعمل في جهاز أمن الدولة Sûrete de ?tat، جهاز الأمن السري في بلجيكا. علمت أن تيري كان يتعين عليه أن يتأكد من كل شيء قبل السير قُدُماً في العملية.

تملكني الغضب. كنت قد خاطرت بكل شيء خدمة لجيل، خدمة لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE). غامرت بحياتي لمساعدة أولئك على اجتثاث هؤلاء الإرهابيين. ربما كنت قد اقترفت إحدى أشنع الجرائم. والآن كانوا سينسفون كل شيء عن طريق التحرك قبل الأوان.

قلت: 'لا أصدقك. ستقومون باعتقالهم.' لم يقل جيل شيئاً ولكنه حَدَجَني بنظرةٍ ذات مغزى.

تابعت كلامي: 'إنكم تقعون في خطأ جسيم. عادوا، أخيراً، ووثقوا بي. هم يتحدثون معي. يمكننا أن نقطع مزيداً من الأشواط إذا أعطيتموني وقتاً أطول.'

كنت أتوسل إليه في هذه النقطة؛ كنت ألتمس منهم فرصة متابعة العمل، الشيء الوحيد الذي كان يضفي معنى، أي معنى، على حياتي. أخيراً خرج جيل عن صمته وقال بابتسامة محكمة: 'اطمئن لا نخطط لاعتقال أحد في أي وقت قريب.'

كنت مرتبكاً. لم أكن واثقاً من قدرتي على الوثوق به. اكتفيت بطلب شيء واحد: 'حين تخططون لتنفيذ الاعتقالات، اقطعْ وعداً بأنك ستخبرني مسْبَقاً.'

أومأ جيل، تحدث ببطء، بنبرة مطمئنة. ابتسم لي.

'سوف أفعل بالطبع.'

الحُمّى

أويت إلى الفراش في وقت مبكر تلك الليلة. رشْحي كان قد زاد سوءاً وكنت أعاني من صداع مخيف. شعرت بشيء من التحسن عند استيقاظي صباح اليوم التالي مما شجعني على ركوب إحدى الحافلات المتوجهة إلى قلب مركز المدينة لمجرد الفرجة. كانت العودة إلى بلجيكا بالغة الروعة بعد كل تلك الأسابيع في المغرب. كان ذلك هو آخر أيام رمضان، وكنت متلهفاً لعيد الفطر في اليوم التالي. كنا سنولم، سنحتفل بالعيد.

بقي الحديث مع جيل في اليوم السابق شاغلاً بالي. كنت شبه متأكد من أن جيل كان قد كذب علي، ومن أن عمليات المداهمة آتية. تذكرت صورتي مع نبيل عند تيري. هل كنا من الأهداف أيضاً؟ هل كانوا سيرمموننا في السجن مع الآخرين؟ كنت أعرف أن جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE) كان قادراً على كل شيء. أولئك الذين كانوا مستعدين لنسف إحدى بواخر السلام الأخضر لم يكونوا مستعدين للتردد لحظة واحدة إزاء تدمير شخص مثلي.

مع حلول ساعات العصر بدأت أشعر بالمرض من جديد، في حالة أسوأ من ذي قبل. كان البرد قد اخترق سترتي ورحت أرتجف. ركبت الحافلة للعودة إلى البيت وما إن جلست حتى شعرت أنني في وضع مخيف، وضع أكثر إثارة للذعر. كان الصداع قد عاد، وكان ثمة طنين دائم في أذني. شعرت بالضعف. حين نزلت من الحافلة وبدأت المشي باتجاه البيت شعرت بأن قدمي كانتا ثقيلتين.

كان حكيم، أمين، وياسين يستقلون السيارة عندما وصلت إلى البيت. سألت:

'إلى أين أنتم ذاهبون؟'

رد ياسين: 'ذاهبون فقط لإنجاز بعض المهمات.'

'تمهلوا' قلت. 'أريد أن أتحدث معكم قبل أن تذهبوا.' كانت أصداء صوتي تتردد في أذني، غير أنني لم أكن أعرف مصدرها. كان رأسي ثقيلاً، أذناي تطنان، وفمي يتكلم وحده.

دعاني ياسين بالإشارة إلى المقعد الخلفي حيث كان حكيم. كان أمين هو السائق في حين كان ياسين في المقعد الأمامي. كان الجميع ينظرون إلي بترقب. قلت:

'أرجوك أسرعْ! لا أريد أن أتكلم هنا. ما سأقوله لكم بالغ الأهمية. هيا ابتعدوا.'

تبادل أمين وياسين نظرات خاطفة، ثم التفتا إلينا. قام أمين بتشغيل المحرك. سرنا نحو خمس عشرة دقيقة قبل أن نتوقف في منطقة صناعية خالية. أطفأ أمين المحرك، ولكنه بقي ناظراً إلى الأمام.

أذناي كانتا لا تزالان تطنان، أعلى فأعلى. بدأت أتعرق؛ عرفت أنني كنت محموماً. ثم تدحرجت الكلمات من فمي: 'كنت أعمل مع جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DESE.'

صمت.

نظرت إلى حكيم الجالس بجانبي. عيناه اتسعتا، شفتاه بدأتا تتحركان بسرعة فائقة. أمين وياسين ظلا يحدِّقان في الأفق البعيد. لم أكن أستطيع أن أرى سوى قفوي رأسيهما. سألني أمين: 'منذ متى؟'

بدأت أسترد الوعي، وأدركت معنى ما قلته للتو. بدأ الضباب ينقشع قليلاً في رأسي، وصرت أشعر بانقباض في صدري. أجبت: 'منذ بعض الوقت، منذ بضعة أشهر.'

لم يتحرك أحد. بدوا مشلولين تماماً. ثم تكلم ياسين. 'هل أخبرتهم بما فعلته في المغرب؟'

'نعم.'

'هل أعطيتهم اسم زبوننا هناك؟'

'لا، لم أقل لهم شيئاً عنه.' وكنت صادقاً في هذا.

فترة صمت طويلة أخرى. لم يتحرك أحد من جديد. ثم تكلم أمين مرة أخرى قائلاً: 'لماذا؟'

لم يكن ثمة أي غضب في صوته. من الواضح أنه كان كامل الهدوء. آنذاك فوجئت برد فعله. لم أفهم لماذا كان هو وياسين بمثل ذلك الهدوء. لماذا لم يصرخا تعنيفاً، أو يحاولا دق عنقي. لاحقاً كان سيتضح السبب.

فكرت لبضع دقائق حول أسلوب تفسير موقفي. حقاً، لم يكن قد سبق لي أن فكرت بالأمر ملياً قبل صعودي إلى السيارة. قلت ببطء: 'لم أفعل ما فعلته إلا من أجلكم أنتم. من أجلنا جميعاً. من أجل خدمة المجاهدين.' بدأت كلماتي تخرج الآن بسرعة أكبر: 'كنت أعلم أنني أستطيع أن أفيد أكثر إذا عملت من الداخل.

لعل أفضل أساليب محاربة العدو هو العمل ضده من داخله. هذه هي الطريقة التي سأعتمدها في جهادي.

لم أستطع رؤية وجه أمين، أو وجه ياسين. إلا أنني استطعت أن أرى من طرف عيني أن حكيماً كان يومئ بلطف. ما من أحد قال كلمة أخرى. أدار أمين مفتاح تشغيل السيارة، عدنا أدراجنا إلى البيت. لدى نزولي من السيارة عاينتُ الثلاثة. عيونهم كانت جاحظة، ونظراتهم بلا معنى، مثل نظرات الموتى.

لم يستغرق الحوار أكثر من خمس دقائق، إلا أنني كنت قد أمضيت سنوات وأنا أفكر به. لا أعرف لماذا أَقْدَمْتُ على ما أَقْدَمْتُ عليه. أعلم أنني لم أخطط للأمر مسبقاً. كنتُ في حالة نشوة، أو مثلها عندما ركبت السيارة. غير أن من كان في السيارة هو أنا، وتلك كانت كلماتي.

صحيح أنني كنت مريضاً، ولم أكن أفكر بوضوح. غير أن ذلك لم يكن هو السبب الحقيقي. فالسبب الحقيقي كان متمثلاً بأنني كنت في حالة رُعب، وكنت أعلم بأنني بحاجةٍ إلى جميع الحلفاء الذين كنت استطيع الاهتداء إليهم. لم أكن أعرف ما كان سيحدث في الخطوة التالية، غير أنني كنت أعلم بأنه كان يتعين علي أن أكون مستعداً لجميع الاحتمالات. ثمة إعصار كان موشكاً على أن يهب. كانت السماء ستمتص كل الأشياء، تعتصرها وتكورها، قبل أن تلقي بها على الأرض من جديد. كنت أنا أيضاً بين الأشياء التي كانت ستتعرض للامتصاص من قبل السماء، ولم أكن أعرف أين كنت سأستقر بعد انتهاء الإعصار.

لم أكن قادراً على الوثوق بجيل. سبق له أن غَدَرَني، أو، أقله، كان موشكاً على أن يفعل. كنت متأكداً من ذلك. غير أنني لم أكن أيضاً قادراً على أن أثق بأي من حكيم، أمين، أو ياسين. كانوا قد بحثوا أمر قتلي، وأرسلوني في مهمةٍ انتحارية إلى المغرب.

لم أكن قادراً على الثقة بأي شخص.

عيد الفطر

استيقظت مبكراً جداً صباح اليوم التالي. كنت قد أويت إلى الفراش مهدوداً من التعب في الليلة السابقة، غير أن نومي كان بالغ السوء. وحين استيقظت وجدتني في حالة حتى أسوأ. كان يتعين علي أن أنزل إلى الطبقة الأرضية لتناول الطعام مع الآخرين. كان رمضان قد انتهى. ثم أعود لأبقى في السرير باقي النهار. غير أنني لم أفعل. شعرت بضرورة الخروج من البيت وإن لم أكن أرى الأمر بهذه الصورة في ذلك الوقت. لم يكن الأمر سوى مجرد شعور في داخلي.

غادرت قبل الساعة السادسة صباحاً وذهبت إلى المدينة. جلست في أحد المقاهي ودخنت قليلاً، ثم تجولت. بقي رأسي مشوشاً وقلبي مثقلاً بكل الأشياء التي كانت قد وقعت منذ عودتي من المغرب. كنت قد تعرضت للخيانة والغدر من الجميع، وكنت قد غدرت بالجميع بالمقابل.

كان رأسي محشواً بدوّامة من الوجوه، وجوه آلاف الصور التي كنتُ قد عاينتها ومحّصتُها خلال العام الماضي؛ العجوز في المغرب، الشباب الذين مروا ببيتنا، وجه جيل حين قدمني إلى تيري، وجه حكيم حين أعلنت ارتباطي بجهاز الأمن، وجه مليكة حين أخبرتني عن مصير الشريط، وجه أمي في الصورة الألبومية، حين كانت صبية. جميع هذه الوجوه كانت تومض أمامي، ولكن دون أي نظام. لم تكن إلا وجوهاً، زحمة وجوه.

كنت شديد الرغبة في أن يَصْفُوَ رأسي. قررت أن أستقل الحافلة المتوجهة إلى حديقة سانكانتينير، حيث كنت قد قضيت كثيراً من الوقت وأنا طفل. كنت قريباً من البيت الذي كان أهلي يعيشون فيه بداية انتقالنا إلى بروكسل. حين كنت أعود أواخر الأسابيع أو الأعياد والعطل كنت أزور المتاحف هناك مع إخوتي. ما أكثر ما كنا نلهو ونلعب ساعات طويلة متواصلة، نستمتع برؤية الطائرات في متحف الجيش، بمشاهدة المومياءات في متحف الفن والتاريخ، بكل شيء.

بعد نزولي من الحافلة دخلت الحديقة، كان الشيء الأول الذي رأيته هو الجامع الذي درجت على التردد عليه مع أهلي وأنا صغير. بالطبع لم أكن أُكْثِرُ من الذهاب إلى الجامع لأنني كنت أعيش في المصح، غير أنني خلال فترات زيارتي لأهلي كنت أتابع دراسة القرآن هناك مع إخوتي. أيام الجمع ورمضان كنت أذهب إلى الجامع مع أهلي للصلاة.

دخلت متحف الفن والتاريخ. كنت أعرف المتحف مثل ظاهر يدي، كنت قد زرته مراتٍ كثيرة جداً. هذه المرة سألت السيدة الجالسة خلف مكتب الاستعلامات إذا كان ثمة أي آثار أو تاريخ إسلاميان. قالت: 'نعم ثمة قسم خاص'، وأخرجت خارطة لتدلني على كيفية الوصول إلى القسم المطلوب. قالت: 'إنه في الملحق. سيتعين عليك أن تخرج من المبنى وتدور إلى الخلف.'

كنت شديد الغضب. كان المتحف يضم مجموعات من سائر حضارات الغرب الكبرى: اليونان، روما، بيزنطة. كنت قد رأيتها جميعاً وأنا طفل. أما المجموعة الإسلامية فلم أكن قد رأيتها على الإطلاق في طفولتي لأنها كانت مخبوءة في أحد الملاحق كما لو كانت أقل جدارة من نظيراتها.

ذهبت إلى الملحق. لم يكن هناك أحد غيري. كان الضوء خافتاً وبدت المعروضات في واجهاتها الزجاجية المتلألئة قافزة نحوي من قلب الجدران. ثمة كانت أزياء وقبعات وكنوز من عصر محمد (ص). حشد من الرماح والسيوف والخناجر جمَّدَني في مكاني. كل ما عدا الحشد تلاشى. أمين، ياسين، طارق، جيل، تيري، جميعاً، اختفوا. بل لم أعد شاعراً برشّحي. صفا رأسي. كنت وحدي، وسمحت لنفسي بالانتقال إلى هذا العالم الآخر. رأيت رجالاً في دروع ثقيلة ورحت أسمع وقع سنابك جيادهم. كانوا مقاتلين مندفعين على ظهور الخيل نحو ساحات القتال، ملوِّحين بسيوفهم البراقة باتجاه السماء. كانوا يهتفون: 'الله أكبر! الله أكبر!'

غير أن هذا كان عالم جمود مثلما هو عالم حركة. كان عالماً زاخراً بالصلاة والعائلة والمعرفة، والاعتزاز الكبير أمام الأمم، والتواضع الشديد أمام الله. تصورت صلاح الدين الذي أجبر الجيوش المسيحية على الهرب من القدس.

كان ذلك عالماً آخر. كان ذلك عالماً جميلاً. ولكنه كان محصوراً، بقضه وقضيضه، في الملحق.

عندما غادرت المتحف بعد الظهر، وجدتني متعافياً من الرشح وأفضل حالاً بكثير. أخذت الحافلة المتجهة إلى حينا. ثم أقدمت على فعل شيء غير اعتيادي. مشيت إلى البيت عبر طريق مغايرة. كانت طريقاً أطول، موازية للقناة، مقتربة من البيت من جهة زقاق خلفي بدلاً من الشارع المقابل للواجهة. لم يكن ثمة ما يدعوني لأن أفعل هذا؛ مجرد مصادفة.

استقبلتني أمي على الباب. كان وجهها أحمر، وكانت تبكي وتصرخ: 'أين كنت. جاء البوليس وأخذ الجميع.'

دخلت البيت معها. كان كل شيء مقلوباً رأساً على عقب. كانت أمي تصرخ باكيةً: 'عاينوا جميع الأمكنة. فحصوا كل الأشياء.' حاولت احتضانها وطمأنتها. ثم قالت: 'أخذوا نبيلاً أيضاً. وهم يبحثون عنك.'

عندئذٍ أيقنتُ أن جيل كان يريد اعتقالي مع جميع الآخرين. كان قد كذب علي. كنت قد عملت معه عاماً كاملاً، كنت قد خاطرت بحياتي، كنت قد أعطيته أشياء كثيرة. والآن كان هو قد غدر بي.

قفزت إلى الطبقة العليا بسرعة وأخذت جواز سفري وبضع صور لي باقية من وقت استخراجي لإجازة السوق. نزلت إلى الطبقة الأرضية الثانية، عانقت أمي مرة أخرى. غادرت البيت من الطريق التي كنت قد اتبعتها عند العودة، بمحاذاة القناة.

كان سيمضي عشرة أعوام قبل أن أرى أمي من جديد.

أخذت الحافلة المتجهة إلى محطة القطار واتصلت مع جيل من إحدى الكوى الهاتفية المأجورة، غير أنه لم يرد. تركت رسالة: 'مرحباً. سأتصل بك بعد ساعة. إذا لم ترد، فسأستقل القطار إلى باريس، وسأكون صباح الغد واقفاً أمام وزارة الخارجية، صارخاً باسمك. من الأفضل لك أن ترد.' أعدت سماعة الهاتف إلى مكانه صفقاً.

بعد ساعة اتصلت ثانية. لم أتلق أي رد. قلت: 'أنا متجه إلى القطار.' أعدت السماعة إلى مكانها واستقليت القطار. كنت أعلم أن زبانية جيل كانوا سينتظرونني في وزارة الخارجية في اليوم التالي لاعتقالي. بالطبع لم أكن راغباً في حصول ذلك.

كنت لا أزال أرتجف غضباً. ظللت أفكر بوعد جيل، بطمأنته لي ووعده بأنه كان سينذرني، كان سيُبْقي نبيلاً خارج اللعبة. ندمت على كل ما فعلته في خدمته. كنت قد صدَّقْتُه حين قال لي إن لدينا الأهداف نفسها، إننا كنا نحارب الأشياء ذاتها. غير أنه كذب علي. كان على الدوام يكذب علي.

كنت أعرف ما كان يتعين عليَّ فعله. كان يتعين علي أن أجعل إقدام جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE، على اعتقالي متعذراً. إذا تمكنوا مني فكانوا سيعتقلونني وستكون كلمتهم ضد كلمتي أنا. كانت لديهم صور لي مع الجميع. كانوا يعرفون كل شيء عن الرشاشات والمتفجرات. عن الرحلة إلى المغرب. كانوا يستطيعون إبقائي وراء القضبان بقية عمري.

تعين علي أن أجعل من المتعذر على الجهاز إنكار حقيقة أنني كنت عميلاً.

'باسبورت' سيلفو بلي (جوازات من فضلكم)، صوت اختطفني من أفكاري. عنصر لضبط الحدود كان مقبلاً عبر الممر، مدققاً جميع الجوازات. حين وصل إلي، سلمته جوازي وتكلمت بهدوء:

'يجب عليك أن تعتقلني.'

صُعق بكلامي. قال: 'عفواً ماذا قلت؟'

'قلت عليك أن تعتقلني. نقطة على السطر.'

'هل اقترفت جرماً؟'

'لا. غير أنني أملك معلومات مهمة. ذات علاقة بالأمن القومي.'

نظر إلي بارتياب، ودام الجدل بيننا بعض الوقت. ثم أصريت على التحدث مع رئيسه. مشينا إلى مؤخرة القطار، حيث كان رئيس قسم ضبط الحدود جالساً في مقصورةصغيرة. مرة أخرى، عرضت قصتي: 'أريد أن أتحدث مع شخص مسؤول عن قضايا الأمن القومي.'

بدا منزعجاً: 'أنا مسؤول عن قضايا الأمن القومي.'

قلت له: 'أنا لن أصارحك أنت. القضية ملحة وعاجلة. لابد لي من أن أتحدث مع شخص من جهاز الدي اس تي '(DST) مشيراً إلى جهاز الديركسيون دولا سورفايانس دو تريتوار، نظير الدي جي اس إي (DGSE) للأمن الداخلي بفرنسا.

تجادلنا حول هذا بضع دقائق أخرى إلى أن أتعبْتُه أخيراً. وافق على إنزالي في المحطة التالية وأخذي إلى المفوضية.

غير أنه كان شديد الغضب. غمغم: 'إذا كنت تحاول خوزقتي وخداعي فإنك سوف تندم.'

'أنا لا أخدعك ولا أحاول أن أخوزقك. إذا لم تسمع كلامي فإنك أنت سوف تندم.'

عند وصولي إلى المفوضية وضعوني في زنزانة. جاء الرئيس وقلت له إنني راغب في التحدث مع شخص من جهاز الدي اس تي (DST). تجادلنا حول الموضوع، إلا أنني صمدت متمسكاً بموقفي. أذعن، ولاحقاً، منتصف الليل، جاء رجل آخر. كان يرتدي ملابس مدنية. كان يصرخ من الغضب كنت نائماً. من الأفضل لك أن يكون الأمر مهماً حقاً، وإلا!'

أكدت له أنه كذلك. سألته عما إذا كان من الدي اس تي (DST) فرد بالإيجاب وأطلعني على بطاقته الشخصية. قلت له إنني بحاجة إلى محفظتي التي أُخذت مني قبل سجني في الزنزانة. ما لبث أحد الحراس أن جاء. قلَّب محفظتي وعاينها قبل أن يعيدها إلي. أخذت رقم هاتف جيل، سلمته إلى موظف الدي اس تي (DST)، وطلبت منه أن يتصل بالرقم. طلبت منه أيضاً أن يترك اسمي على الجهاز مع رسالة تقول بأنني رهن الاعتقال وأتحدث مع أحد موظفي الدي اس تي (DST). ثم رحت أنتظر في الزنزانة.

بعد ساعة جاء أحد العناصر وفتح باب الزنزانة. طلب مني أن أتبعه، وقال إن هناك شخصاً على الهاتف كان ينتظر للتحدث معي. ما إن وصلت إلى المكتب حتى رفعت السماعة. كان صوت الرجل على الطرف الآخر منفعلاً ودافئاً: 'كيف حالك يا عمر؟!'

دُهشت. كانت تلك المرة الأولى التي يتم فيها في الأجهزة ذكر اسمي. قلت: 'أنا رائع!'

رد الرجل: 'هذا جيد. سعيد أنا بسماع ذلك. الآن قل لي، ماذا أخبرتهم؟'

'لا شيء. لا شيء على الإطلاق.'

قال: 'هذا جيد. ابق صامداً. إياك أن تتكلم. سنخرجك من هناك مباشرة. سأتصل خلال بضع دقائق.'

لم يبادر الشرطي إلى إعادتي إلى زنزانتي بعد الذي حصل. انتظر معي إلى أن أعاد الرجل الاتصال. طلب مني البقاء في المحطة تلك الليلة. كانت الشرطة ستقطع لي تذكرة عودة إلى بروكسل. صباح اليوم التالي كان يتعين علي أن أتصل مع جيل ليحدد لي مكان اللقاء معه.

ما أكثر ما أصبح الجميع في المخفر كرماء ولطفاء بعد ذلك! رئيس المفوضية نفسه سمح لي بأن أدون تقرير الشرطة الخاص بي، ليقينه بأن الأمر لم يكن سوى مظاهر روتين. ومع ذلك، رفضت أن أوقع، وهو لم يلح. ثم تابعنا السهر حتى ساعات الصباح المبكرة ونحن نلهو ونلعب الورق.

أدركوا أنني كنت واحداً منهم. وأنا أدركت أنهم عرفوا. باتت أجهزة الدرك، الشرطة المحلية، الدي اس تي (DST)، جميعاً، مطلعة على حقيقة كوني أحد العملاء. لم يكن جيل قادراً على الإنكار، لم يعد جهاز الدي جي اس إي (DGSE) قادراً على إنكار الحقيقة. كل ما كان الطرفان متمتعين به من نفوذ وسيطرة علي، فقداه في تلك الليلة.

كان ثمة جهاز تلفزيون تلك الليلة في المفوضية، في غرفة الانتظار حيث لعبنا الورق. كانت ثمة تقارير إخبارية عن الاعتقالات الحاصلة في بلجيكا. لم يكونوا، بعد، يأتون على ذكر أي أسماء، إلا أنني كنت سأعرف ما هو أكثر بما لا يقاس لاحقاً.

كانوا قد اعتقلوا كلاً من أمين وياسين. حوكما في بروكسل في الخريف التالي؛ أقرا بالتهم الموجهة إليهما وحُكما بأربع سنوات سجن. أما حكيم فنال عقوبة أشد ربما لأن أشياء كثيرة ـ جملة السيارات، البيوت الآمنة، المخابئ، الحسابات المصرفية ـ كانت باسمه. كانت الجماعة قد استغلته تماماً.

علمت أن طارقاً لم يكن، في الحقيقة، إلا رجلاً يدعى علي توش، أحد كبار عناصر عمليات الجماعة الإسلامية المسلحة في أوروبا. نجا من المصيدة بطريقة

ما وفر إلى هولندا. اعتقلوا أيضاً رجلاً يدعى طارق بن حبيب معروفي. كنت قد تعرفت عليه في إحدى الصور التي عرضها جيل علي. كان المعروفي هذا قد مر بالبيت في إحدى المحطات. وهذا المواطن التونسي كان عضو جماعة متطرفة ذات روابط مع الجماعة الإسلامية المسلحة. ما لبث جيل، لاحقاً، أن بيَّنَ أن الدي جي اس إي (DGSE) كان عاكفاً على تقصي حقيقة هذه الجماعة التونسية، الأمر الذي جعله شديد الاهتمام بقائمة العناوين التي كنت قد سرقتها من العلب المخزنة في المطبخ.

جرى إطلاق سراح المعروفي بعد عام واحد فقط، وقد واصل النشاط ليصبح واحداً من أهم وأبرز منظمي القاعدة في أوروبا. في أيلول/سبتمبر 2001، كان هو العقل المدبر لعملية اغتيال أحمد شاه مسعود في أفغانستان، ذلك المجاهد النبيل الذي كان قد أصبح بطلاً بنظري بعد أن شاهدت كل تلك الأفلام في مركز بومبيدو عن الغزو السوفييتي لأفغانستان. منذ ذلك الوقت كان شاه مسعود قد أضحى رئيس تحالف الشمال في أفغانستان، ذلك التحالف الذي كان معارضاً شرساً للطالبان.

نجح المعروفي في تجنيد اثنين من الانتحاريين في بلجيكا وزوَّدَهما بجوازي سفر مزورين. متظاهرين بأنهما صحفيان، قابلاً مسعوداً والناطق باسمه. قاما بتفجير العبوة المفخخة، قاتلين نفسيهما والمتحدث باسم الزعيم ومسعود مباشرة. أصبحت طريق بن لادن في أفغانستان ممهدة. وبعد يومين اثنين تهاوى البرجان التوأمان.

مغامرات جديدة

قابلت جيل في بروكسل في اليوم التالي. كان اللقاء منسقاً بعناية فائقة؛ حدد لي رقم المقصورة التي كان يجب أن أختارها للجلوس فيها في القطار،

المخرج الذي كان يتعين علي استخدامه للخروج من المحطة. كان ثمة ضباط سريون في المحطة كلها؛ كنت خبيراً في تمييزهم في أي حشد.

ما إن خرجت من المحطة حتى وجدت جيل أمامي فمشينا معاً إلى أحد مطاعم الماكونالد وجلسنا إلى إحدى الطاولات. كنت شدد الغضب منه. وكان هو متوقعاً ذلك.

قلت: 'كَذَبْتَ علي. قلت لي إنك كنت ستحذرني إذا ما تقرر إجراء أي اعتقالات.' كانت نبرة صوتي أقرب إلى الصراخ: 'وعدتني بعد اعتقال نبيل.'

بقي جيل متماسكاً، كعادته دائماً. غير أنه تحدث بصوت أهدأ من المألوف، وكان أقل انتصاباً في جلسته على الكرسي. أضاف مفسراً: 'لم يكن الذنب ذنبي أنا. بعض عناصر شرطة المرور أوقفوا سيارة أمين ووجدوا فيها كميات كبيرة من الأسلحة. أوقفوه. فاضطررنا، على الأثر، أن نبادر إلى القيام بكل شيء فوراً.' لم أصدقه.

تابع كلامه: 'صحيح أننا اعتقلنا نبيلاً. وكان علينا أن نفعل. كان في البيت مع سائر الآخرين. غير أننا لم نحتجزه سوى مدة ساعتين أطلقنا سراحه بعدهما.'

أراحَني سماعُ النبأ. فرحت لأن نبيلاً كان بخير ولأن أمي لم تكن وحدها. غير أنني بقيت حانقاً على جيل. قلت: 'كنتم ستعتقلونني.'

أومأ جيل. 'نعم' هذا صحيح. كنا سنحتجزك لمجرد تمكينك من الحصول على المزيد من المعلومات منهم. إلا أننا لم نكن سنبقيك في الحجز على الإطلاق.' ثم اعترف بأنهم فوجئوا بعدم وجودي في البيت مع الآخرين لأن المداهمة كانت في الصباح الباكر. ثمة كانت سيارة بقيت منتظرة النهار كله، بهدف الإمساك بي لحظة عودتي إلى البيت. إلا أنهم لم يكونوا قد رأوني لأنني كنت قد عدت من الزقاق الخلفي.

توقف جيل عن الكلام ونظر إلى بؤبؤ عيني وقال: 'مازلنا راغبين في أن تلتحق بهم في السجن. نريد منك أن تحصل منهم على المزيد من المعلومات المفيدة لنا.' أبلغني عن وجود ضباط من الجهاز السري البلجيكي المنتظرين خارج المطعم، وحاول إقناعي بتمكينهم من اعتقالي. 'بالطبع لن نتركك في المعتقل. نحن لا نريد إلا الحصول على المزيد من المعلومات. لعلك الشخص الوحيد القادر على أداء هذه المهمة.'

حافظت على رباطة جأشي وهدوئي، غير أنني كنت شديد الاستياء منه. يا للوغد! كنت قد أعطيته هو وجهازه كل هذه الكنوز من المعلومات. كنت قد جعلت هذه المداهمات ممكنة. لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء مما فعلوه دوني أنا. لو كانوا لما انتظروا إلى حين عودتي من المغرب. كان بوسعهم إبقائي هناك. أما الآن فقد أنجزت مهمتي، وبات راغباً في الخلاص مني. وكان يظن أنني كنت على درجةٍ من الغباء تكفي لتصديق ما يثرثر به من هراء.

ملت على الطاولة وحدقت في وجهه. قلت: 'قُلْتَ لي إن لدينا الأهداف ذاتها.' كانت نبرة الغضب جلية في صوتي؛ لقد كانت همسة وصرخة في الوقت عينه. 'بعد عملية الاختطاف، تحدثنا عن الأمر. وعدتك بالولاء الكامل. توهمتُ أنني كنت حاصلاً على إخلاصك. إلا أنك ما لبثت أن غدرت بي.'

كانت عينا جيل تزدادان اتساعاً مع كل كلمة أقولها. كنت مستعداً لأتحلى بالقدر نفسه من انعدام الرحمة في تعاملي معه مثل تعامله معي. غير أنني كنت لا أزال بحاجة إليه. قلت له: 'سأخبرك الآن. سأذهب إلى أي مكان، سأفعل كل شيء لمحاربة هؤلاء الإرهابيين. كلفني بمهمة، أي مهمة. إلا أنني لن أدخل السجن من أجلك. لَسْتَ صاحب سلطة علي، وأنا لا أثق بك.'

تراجع جيل في كرسيه قليلاً: 'تمام، تمام!' قال وهو يتنهد. 'إذن علينا أن نخطط معاً لشيء ما.' صَمَتَ للحظة، غارقاً في التفكير.

وبعد قليل قال: 'لابد من إخراجك من بلجيكا. أعطينا اسمك للانتربول ليلة البارحة. ما إن يدخل الاسم في الجهاز حتى يصبح إخراجه متطلباً لبعض الوقت.' أخرج محفظة نقود وأعطاني مبلغاً من المال. قال: 'غداً سنوصلك إلى فرنسا. عليك أن تتخلص من ملابسك. حذار استعمال الحافلة أو المترو. ابق بعيداً عن الأنظار.'

أخذت المبلغ. سألني عن المكان الذي كنت سأمضي فيه الليل. قلت: 'سأهتدي إلى إحدى العاهرات.' كنت أعلم أنه كان من المحتمل أن يسعى إلى جعلهم يعتقلونني أيضاً لو أطلعته على عنوان الأصدقاء الذين كنت سأنام عندهم.

في اليوم التالي التقيت جيل في محطة القطار. أوصاني باستئجار سيارة تكسي تقلني إلى قرية قريبة من الحدود الفرنسية تدعى أنتوينغ. التقينا ثانية هناك، أوصاني ثانية باستئجار سيارة تكسي أخرى والتوجه إلى روم. ومن هناك كان علي أن آخذ سيارة أجرة ثالثة إلى قرية فرنسية صغيرة عبر الحدود مباشرة تدعى أورشي.

حين وصلت إلى أورشي وجدت اثنين من ضباط الشرطة السرية واقفين بجانب سيارة أمام الكنيسة. بعد بضع دقائق وصل جيل. دار حول الزاوية مشياً. من الواضح أنه كان يتعقبني من أنتوينغ.

ما إن رآني حتى حياني. خرج سائق من السيارة وفتح الباب له، وركبنا، جيل، وأنا والضابطين، السيارة. وبعد أن استقر كل منا في مقعده، التفت جيل إليَّ ناشراً ابتسامة هزيلة على وجهه وهو يقتبس عبارة عظيمة من كتب الأجراس قائلاً: 'في الطريق إلى مغامرات جديدة! En route pour de nouvelles aventures'.

obeikandl.com

الدوله باخشته (حديقة الردم) (حدائق يلدز في استانبول الغربية)

بعد وصولنا إلى باريس، قام جيل بحجز غرفة لي في أحد الفنادق. كان فندقاً رخيصاً، بالياً، وبشعاً، وحين زارني في المرة الثانية شكوت. قلت إنني كنت أظن أنني كنت جديراً بما هو أفضل بعد كل الذي كنت قد فعلته. على مضض نقلني إلى مكان ألطف.

لم يكن لدي أشياء كثيرة أقوم بها خلال فترة وجودي في باريس، إلا أن جيل دأب على تزويدي بالمال وعلى زيارتي كل بضعة أيام. من الغريب أنه طلب مني ذات يوم أن أتصل بأهلي. كان يريد أن يعرف ما إذا كانوا قد اكتشفوا أنني كنتُ، أنا وراء عملية الاعتقال. أرعبني الطلب. كان نبيل قد أوقف مع الآخرين، وعلى الرغم من أنه لم يكن قد بقي في الحجز سوى ساعتين، فإن من المحتمل بقوة أن يكون حكيم أو أحد الآخرين قد حدثه عن اعترافي قبل يوم واحد. وإذا ما نجح جيل في اكتشاف ذلك، فإن من شأنه أن يعرف أنني كنت قد غدرت به. كان سيتم اعتقالي فوراً. لم يكن ثمة أي شيء أستطيع فعله سوى تلبية الطلب. فأدرت الرقم.

نبيل رفع السماعة، وكان غاضباً. صرخ بأعلى صوته: 'أين أنت؟ انظر ماذا فعلت. إنه خطؤك، أنت، من الألف إلى الياء ـ الجميع باتوا في الحبس. ماما منهارة. لو كنت رجلاً حقيقياً لعدت وتحملت مسؤولية ما فعلته.'

شعرت بالارتياح. بالطبع كان غاضباً مني. من قبل، كنت قد وعدت باتخاذ تدبيرٍ ما لإبعاد طارق، أمين، وياسين عن البيت، وبالتالي كان سيفترض على نحوٍ طبيعي أن الاعتقالات كانت ذات علاقة. غير أنه لم يكن قد قال أي شيء عن جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE)، وهذا هو المهم. من البداية كان جيل يعرف أنني كنت قد قطعت وعداً غامضاً بحمايته،

لأنه كان بجانبي حين اتصلت بنبيل بعد لقائنا الأول. وحين ذكرته بالأمر، انتفت الحاجة إلى أي مزيد من الكلام.

غير أننا أدركنا، كلانا، بعد تلك المكالمة الهاتفية، أن عملي في أوروبا بات مستحيلاً.

في الحقيقة، لم أكن راغباً في مواصلة العمل في أوروبا بعد ذلك. كنت تواقاً إلى الذهاب إلى معسكرات التدريب في أفغانستان. كنت قد رأيت عدداً كبيراً من الشباب المارين بالبيت في الطريق إلى المعسكرات، وكنت أشعر بالغيرة منهم. شعرت بالغيرة وأنا أسمع كلاً من أمين وياسين وهما يتحدثان عن الوقت الذي قضياه هناك. وما أكثر ما حلمت بالجبال! كنت متلهفاً للعيش بين الجبال.

أراد جيل إرسالي إلى تركيا. كان يتوقع أن أكون مفيداً في تركيا لأن الجهاز كان قد لاحظ اختفاء أعداد كبيرة من الرجال في فرنسا، وهم رجال كانوا خاضعين للمراقبة. كان هؤلاء يترددون على الجوامع المتطرفة يومياً ثم لا يلبثون أن يختفوا فجأة. كانوا يذهبون إلى تركيا ثم يضيعون. وبعد بضعة أشهر كانوا يعودون إلى الظهور في الجوامع نفسها بفرنسا، غير أن أحداً لم يكن يعرف المكان الذي كانوا فيه خلال فترة الغياب. كان الجهاز يقدر أنهم كانوا يمضون تلك الفترات في معسكرات التدريب. كان جيل يريد أن يعرف ما كان يجري في تركيا، كيف كان هؤلاء الرجال يذهبون إلى المعسكرات.

وافقت على متابعة الأمر، على الرغم من ارتيابي من ألا يكون جيل راغباً إلا في غَسْل يديه مني. فهو لم يزوِّدني بأيّ أسماء، أيّ صور، أيّ عناوين. بل ولم يحدد لي اسم المدينة التي كان يتعين عليّ أن أركز اهتمامي عليها. أدركت أنها كانت ورطة، طريق مسدودة، أن جيل كان يحاول خداعي مرة أخرى غير أنني لم أكن أنا أيضاً عاجزاً عن خداعه.

لم يكن قد سبق له أن أخذني بالجدية التي كان يتعين عليه أن يأخذني بها. إلا أنني كنت سأبرهن مدى جدارتي بالاحترام. كنت سأتسلل إلى المعسكرات. كنت سأفاجئه هو ومجمل جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE)، فأجبر الجميع على الاهتمام بي.

بعد بضعة أيام، رافقني جيل إلى مطار شارل ديغول. تعين عليه أن يصحبني عبر نقطة مراقبة الجوازات لأنني لم أكن متوفراً على سمة دخول فرنسية؛ كانت معي سمة دخول إلى بلجيكا فقط. أعطاني سبعة آلاف دولار. ثم أتى على ذكر أحد الفنادق الاستانبولية الكبرى، حيث كنت سأقابل المسؤول عني. كنت سأسلمه بطاقة عودتي. وبهذه الطريقة كان جيل سيتمكن من ضمان عدم عودتي لإزعاجه هو أو الجهاز. لم يصرح بذلك، بالطبع، ولكن ذلك كان هو ما رمى إليه. لم أجادله.

كنت مسروراً من احتمال ركوب الطائرة. كنت ذاهباً إلى مكان جديد؛ كنت أقطع شوطاً على الطريق إلى أفغانستان. كذلك كنت تواقاً لرؤية تركيا أيضاً. ما أكثر ما كنت قد سمعت عن العالم العثماني وأنا طفل! أضف إلى ذلك أنني كنت قد رأيت بعض كنوز ذلك العالم في المتحف ببروكسل. فتركيا كانت مقر الإمبراطورية الإسلامية العظيمة الأخيرة. أردت أن أرى الجوامع والنساء اللواتي يغطين رؤوسهن. أردت أن أسمع الأذان.

غير أنني ما لبثت، لحظة خروجي من مطار استانبول وركوبي إحدى سيارات الأجرة، أن أدركت أنني كنت مخطئاً. تبين لي وأنا في الطريق إلى مركز المدينة أنني كنت واهماً. ثمة كانت نساء في "خراطات" قصيرة جداً (ميني سكيرت)، ورجال في سراويل جينز. ثمة كانت أضواء مبهرة وموسيقا صاخبة. بدا كل شيء شبيهاً بأوروبا مئة بالمئة. خاب أملي.

بعد نحو ساعتين التقيت المسؤول. كان قصير القامة ورياضياً جداً. قدم نفسه بشيفرة سخيفة كان جيل قد زوده بها قائلاً: 'مرحباً يا سيد. أخشى ألا تكون جوزفين قادرة على المجيء إلى الموعد اليوم، أرسَلَتْ لك أطيب تمنياتها.' وجهه كان بالغ الجدّية. تبعته إلى أحد الأقبية وسلَّمْته بطاقة العودة.

ثم اهتديت إلى سيارة أجرة طلبت من سائقها أن يطوف بي على المدينة. كان السائق عربياً، وسرعان ما بدأنا نتبادل الحديث. سألته عن سبب كون استانبول في هذه الحالة، وعما كان قد حصل للثقافة والتاريخ الإسلاميين.

'إن السبب هو أتاتورك' قال. لم أكن قد سمعت عن أتاتورك من قبل. أفادني السائق بأن أتاتورك هذا كان قد عَلْمَنَ البلد كله، قد شطب اللغة بل وحتى الأحرف الأبجدية. قال إذا كنت أريد أن أرى الإسلام الحقيقي فقد كان لابد لي من أذهب إلى قونيه، مسقط رأس الرومي.(*)

لم أكن أعرف شيئاً عن الرومي، إلا أنني وثقت بالعربي. وعلى أي حال، فإن جيل لم يكن قد كلفني بأي عمل آخر أقوم به. ما لبثت أن أخذت القطار الذاهب إلى قونيه؛ استغرقتْ الرحلة نحو خمس عشرة ساعة. بعد أن حجزت في أحد الفنادق وأخذت قسطاً من الراحة، طلبت من عامل الاستقبال أن يدلني على جامع.

صُعقت لدى عبوري باب الجامع، إذ رأيت عدداً من القبور داخل المسجد. فقط المسيحيون لديهم قبور في كنائسهم؛ هذا ممنوع في الإسلام. فالجامع هو بيت الله، لا بيت الأموات. كان حكيم قد لقَّنني ذلك في المغرب.

بعد أن تجاوزتُ صدمتي الأولية، بدأت أتفهم المكان الذي كنت فيه. ثمة كانت آلات موسيقية على الأرض في المسجد، مما كان يعني شيئاً واحداً فقط:

(*) الرومي: هو الشاعر الصوفي المعروف جلال الدين الرومي.

كنت في جامع للصوفيين. في الحقيقة لم أكن أعرف شيئاً، أي شيء، عن الصوفية. كنت أعرف فقط أنها غير ذات علاقة بالمطلق مع ذلك النوع من التطرف الإسلامي الذي جئت أبحث عنه. في المغرب، سبق لي أن رأيت صوفيين يرقصون في الشارع: رقصة الدراويش الدورانية. غير أن الصوفي الوحيد الذي كنت أعرف عنه شيئاً كان شخصاً يدعى كات ستفنس. كان هذا قد اهتدى إلى الإسلام حين كنت أنا مراهقاً، وبوصفي مسلماً كنت قد شعرت بالاعتزاز. غير أن حكيماً ما لبث أن لقَّنني، عندما أتى إلى المغرب، أن كات ستفنس لم يكن، كغيره من معشر الصوفيين، إلا واحداً من الطواغيت. فالمسلمون لا يرقصون، لا يعزفون الموسيقا في الجوامع. كنت أعرف هذه الأمور بالطبع. غير أنني فوجئت حين سمعت من حكيم أن كات ستفنس، الذي اعتبرتُه بطلاً، لم يكن، في الحقيقة، إلا كافراً.

وبالتالي فقد أيْقَنْت أنني لم أكن مرشحاً للعثور على أي شيء في قونيه. إلا أنني لم أكن في الوقت نفسه متوفراً على أي فكرة عن المكان الذي يمكنني أن أبحث فيه عن الطريق السرية العجيبة والملغزة المفضية إلى دنيا الجهاد. استأجرتُ سيارة.

أمضيت شهراً كاملاً وأنا أسوح بالسيارة في جميع أرجاء تركيا، متحدثاً مع الناس في الشارع، مع الأئمة والعامة ممن كنت التقيهم دون استثناء أو تمييز. كنت في أنقرة، إزمير، أضَنه، إسكيشهر، بورصه ـ قطعتُ ما مجموعه ثلاثة آلاف وخمس مئة كيلومتر. لم أجد شيئاً.

ومن ثم وقعتْ لي حادثة سير ذات يوم. شاحنة صدمتني وقذفتني في هاوية. تدحرجتْ سيارتي عن الصخرة واستقرت على عمق 25 متراً تحت مستوى الطريق. كنت محظوظاً إذ نجوت سالماً، ولكن السيارة تدمّرت.

تابعت الشاحنة طريقها دون أن تتوقف؛ اختفتْ؛ فص ملح وذاب. بعد الحادثة بيوم جاء رجل من وكالة تأجير السيارات إلى الفندق. لأن الشاحنة كانت

قد اختفت، كان سيتعين علي أنا أن أسدد مبلغ الألف والمئتي دولار المحدد في عقد تأمين شركة التأجير. سددت الفاتورة غير أن ذلك أجهز على كل ما كان معي.

عدت إلى استانبول وفعلت الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع فعله: اتصلت مع جيل. تركت رسالة على جهاز هاتفه المزود بآلة التسجيل، إلا أنه لم يعاود الاتصال. تركت رسالة أخرى بعد يومين. لا رد. مع حلول آخر الأسبوع كنت أتضرع عبر جهازه: 'أرجوك جيل، اتصل بي. رد علي. وقعت لي حادثة، اضطررت إلى دفع كامل الأضرار. لا أملك قرشاً.'

لا شيء، رغم كل شيء.

وهكذا فإنني أقْدَمْتُ على ما كان يجب أن أُقْدم عليه: ذهبتُ إلى القنصلية الفرنسية. حين وصلت إلى هناك، سألني أحد الحراس عن غرضي. قلت له إنني مواطن فرنسي، وقد ضاع مني جواز سفري. أشار إلى الباب ومنه إلى السلّم المفضي إلى أحد المكاتب.

ذهبت ووقفت في الصف. حين جاء دوري، اقتربت من المرأة الجالسة خلف المكتب. لاحظت أن هناك مكتباً آخر خلفها، وأن الباب كان مفتوحاً. ألقيت نظرة خاطفة. رأيته، إنه الرجل الذي كان قد استلم مني تذكرة العودة في يومي الأول باستانبول. حين رآني جحظت عيناه اندهاشاً. لم تكن لديه أي فكرة عن هويتي، غير أنه كان يعرف أنني جاسوس. والجواسيس لا يكشفون عن وجوههم في المباني الرسمية.

مشى باتجاهي بسرعة ودعاني بالإشارة إلى إحدى الزوايا. بصوت خفيض، طلب مني رقم هاتف. أعطيته بطاقة الفندق، فقال لي إن أحداً كان سيتصل بي في غضون ساعتين.

ثمة شخص اتصل بي فعلاً بعد أقل من ساعتين، ولكن المتصل لم يكن جيل. كان شخصاً آخر، ما لبثت أن انتهيت متعقباً إياه عبر شوارع استانبول تماماً كما كنت قد تعقبت جيل في بروكسل. أعطاني ألفاً وخمس مئة دولار وقال إن جيل كان مشغولاً جداً وكان سيتصل بي في غضون يومين.

وحين تكلمت، أخيراً، مع جيل، عَبّر عن أسفه الشديد لعدم تمكنه من الاتصال من قبل، قائلاً إنه كان غارقاً في العمل. كان لا يزال يظن أنه قادر على خداعي. قال إنه كان سيأتي إلى استانبول خلال يومين.

التقينا في مطعم وقلت له إنني كنت أضيع وقتي في تركيا. عبرت عن رغبتي في الوصول إلى جذور هذه الشبكات الإرهابية في الباكستان وأفغانستان. كنت أريد التسلل إلى معسكرات التدريب. عيناه زاغتا. قال: 'ذلك مستحيل.'

سألته: 'لماذا يكون مستحيلاً؟'

'لمجرد أنك لن تستطيع الوصول إلى المعسكرات. لابد من أن تكون مزوداً بكتاب توصية من أحد المجنّدين المعتمدين في أوروبا كي تتمكن من الاختراق.'

أزحت هذه المشكلة جانباً. كنت واثقاً من أنني كنت قادراً على الاختراق إذا استطعت الوصول إلى هناك.

تابع كلامه قائلاً: 'ستكون بحاجة إلى تأشيرة دخول باكستانية. ولن يكون الحصول عليها سهلاً.'

قلت ناشراً على وجهي ابتسامة عريضة: 'لم لا؟ هل لأني لا أبدو إرهابياً؟'

حصلت على التأشيرة. لم يستغرق الأمر سوى خمسة أيام، لم أستطع أن أحصل إلا على تأشيرة سياحية مدتها خمسة عشر يوماً فقط. غير أن المدة كانت كافية. حين عاد جيل إلى استانبول بعد أسبوع، فوجئ بحصولي على أي شيء بالمطلق، وأبدى إعجابه.

التقينا في حدائق الدولمه باخشته (حدائق الردم). كان يوماً ربيعياً جميلاً. تسلقنا التلة (تلة قصور يلدز) واهتدينا إلى مقعد مطل على البوسفور. أمهلني مدة سبعة أشهر. إذا لم أعد خلال تلك المدة، كان سيقطع علاقتي. كان رقم الهاتف سيتعطل، لن يعود يعمل. ثم ناولني ألفاً وخمس مئة دولار.

قال: 'اعلمْ أنكَ لَسْتَ أول من يحاول التسلل إلى المعسكرات.'

سألته:'ماذا جرى للآخرين؟'

'أكثرهم لا يصلون. يعودون أصفار الأيدي. بعضهم لا يعودون بالمطلق.'

'أما أنا فسوف أصل كما سوف أعود' قلت بثقة.

'تمام. على بركة الله. ولكن إذا لم تفعل ـ حسناً، ذلك أيضاً مقبول.' ونظر إليَّ نظرة ذات معنى وقال: 'يمكنك أن تذهب إلى حيث تشاء. لن نزعجك.'

في تلك اللحظة خَفَّتْ نار غضبي من جيل. صحيح أنه كان عديم الأهلية للثقة، غير أنني كنت قد أمضيت في الكلام معه وقتاً أطول من أي شخص آخر خلال فترة عملي لديه وبتوجيهه التي دامت عاماً كاملاً. وكنا، كلانا، نريد، آخر المطاف، الأشياء ذاتها، على الرغم من أنه كان قد تعين علينا أن نسعى إليها بطريقتين مختلفتين. كان عليه هو أن يؤدي وظيفته. كنت أعرف ذلك. غير أنني كنت أعرف أيضاً أنه لم يكن يريد، في أعماقه، أن يلحق بي أي أذى. كان راغباً في أن يوفر لي مخرجاً، وكان قد أعطاني مبالغ كبيرة من المال لأبدأ حياةً جديدة.

إلا أنني لم أكن أنا راغباً في أي حياة جديدة. كنت متمسكاً بحياتي ولكن على نطاق أوسع ومستوى أعلى. أظن أن جيل كان، هو الآخر، يريد أن انجح.

أطرقت مثبِّتاً نظري على علبة سجائر المارلبورو وأشرت إلى الشعار قائلاً:

'فني، فيدي، فيتشي '(veni, vidi, vici) (جئتُ، رأيتُ، انتصرتُ)[*] ابتسم جيل.

وقفت، تصافحنا. بقي على المقعد. ثم دُرْتُ وغادرت الحديقة نازلاً نحو البوسفور.

* *

(*) عبارة شهيرة أطلقها يوليوس قيصر بعد انتصاره في إحدى معاركه في آسيا الصغرى عام 47ق.م.

obeikandl.com